

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور شوقى ضيف

الفكاهة فى مصر

دار المعارف

تحتاج الفكاهة إلى فضل من الذكاء، ودقة فى الحس، ورهافة فى الذوق والشعور. وكل هذا لا ينقص المصرى. ومن أهم ما يميز المصريين فى عصرهم الحديث روح الفكاهة، فهم مشغولون بالنكتة على كل شخص، وعلى كل شىء، ألهمتهم فى ذلك عصور الشدة والرخاء منذ أن كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم، ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم.



دار المعارف

٤٠٥٤٨٧/٠٢





سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٥١١]

نائب رئيس التحرير

حمـدى عبـاس

مدير التحرير

كريمـة متـولى

مـديـر فـنـى
تصميم الغلاف

شريفة أبوسيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

دكتور / شوقى ضيف

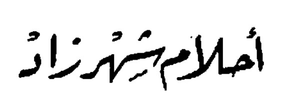


الطبعة الثالثة



دار المعارف

اقرأ



إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

مقدمة

من أهم ما يميز المصريين فى عصرهم الحديث روح الفكاهة المنبثة فى أحاديثهم، فهم مشغوفون بالنكتة على كل شخص وكل شىء. وفى أحرج المواقف وأدقها لا تلبث بارقة الفكاهة أن تلمع وتتألق وترتسم على الأفواه والشفاه.

وليست هذه الروح جديدة على المصريين، فهى قديمة فيهم، ترجع إلى أعتق الأزمنة وأعمقها فى التاريخ، فمنذ برزوا على صفحة الزمن وهم يضحكون ويسخرون ويتهكمون. ألهمتهم ذلك عصور الشدة والرخاء منذ كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم، ويحنو عليهم واديهم فيلقى فى حجورهم بحبه وثماره، ويملكون معظم العالم القديم ويلقى بين أيديهم بثرواته وكنوزه.

وقد مضت مصر فى عصورها القديمة والوسطى وفى العصر الحديث أثناء الاحتلال الإنجليزى البغيض تعانى هذين الضربين المتناقضين فى الحياة : ضربى الشدة والرخاء . الشدة وما يطوى فيها من عسف بعض الحاكمين وظلم المحتلين ، والرخاء وما يطوى فيه من طيبات الرزق . وطبيعى أن يجر هذا التناقض وما يحمل من تضاد شديد إلى الفكاهة والسخرية .

وهيأت لمصر أوقات الفراغ الطويلة بين فصلى الزرع والحصاد أن تأخذ الفرصة دائمًا كى تنفس عن نفسها وتغسل فى معين الفكاهة ما قد يقع عليها من عسف وظلم . وكان توسطها بين الشعوب فى رقعة العالم وخصب أرضها وكثرة خيراتها سببًا فى أن ينزل بها أجناس مختلفون ، وأن ترى فيهم بديارها غرابة فى عاداتهم وأزيائهم وحين يتكلمون بلهجاتهم ، فكان ذلك دافعًا آخر من دوافع الفكاهة .

وتحتاج الفكاهة إلى فضل من ذكاء ودقة فى الحس ورهافة فى الذوق والشعور ، وكل ذلك لا ينقص المصرى كما لا ينقصه حضور البديهة وسرعة الجواب . وهو لا يبارى فى اللعب بالألفاظ واستخراج ما فيها من معان ماكرة عن طريق التورية . واجلس فى أى مجتمع للمصريين أو فى مقهى من المقاهى وخاصة المقاهى البلدية حيث يجتمع العمال ومن لا عمل له ، فستجد الفكاهة تدور على كل لسان ، وستراهم حين يعجبهم أحد المتحدثين الفكهين يقولون إنه «ابن نكتة» دلالة على مدى إعجابهم به .

وهم يروون النكت ويتتبعونها كما يتتبعون أخبار «آخر ساعة» ومنهم من يقتصر بها على صحبه فى مجالسه الخاصة، ومنهم من يحترفها فى الحفلات العامة، وطائفة غير قليلة تحترفها فى الصحف والمجلات، حتى يقبل عليها القراء. وتسقط إلى صحافتنا بعض فكاهات غربية، ولكن من الحق أن نقول إننا فى هذا الباب نصدر - قبل كل شيء - عن ينابيع لا تنضب فى مزاجنا وجوهر طباعنا.

وكنا إلى عهد قريب لا نعنى بعرض هذا الباب الفكه فى أدبنا، لأنه كتب فى أكثره بلغتنا العامية، وكأننا انصرفنا عنه ترفعًا منا، أو استصغارًا لشأنه، مع أنه أكثر دلالة علينا وعلى نفسيتنا من كثير من الأدب الفصيح الجاد. ومن الواجب أن نقرن صفحة حياتنا الجادة بصفحة حياتنا الفكهة، حتى نطلع على حقيقة حياتنا اطلاعًا تامًّا أو كاملًا. وأنك لتجد مصر وشعبها ممثلين فى هذا الأدب الضاحك بأكثر وأقوى مما تجدهما فى الأدب الفصيح الخالى غالبًا من الضحك والهزل، لسبب بسيط، وهو أنه ينبع من صميم الشعب وينطق عن روحه ومزاجه بدون أى تصنع أو تكلف. والصحف التالية تعرض هذا الباب من أدبنا الشعبى عرضًا تاريخيًّا موجزًا. والله الهادى إلى سواء السبيل.

شوقى ضيف

الفُكَاهَة

أنواع الفكاهة

كلمة الفكاهة من الكلمات التى حار الباحثون فى وضع تعريف دقيق لها ، والسبب فى ذلك كثرة الأنواع التى تتضمنها واختلافها فيما بينها ، إذ تشمل السخرية واللذع والتهكم والهجاء والنادرة والدعابة والمزاح والنكتة و«القفش» والتورية والهزل والتصوير الساخر « الكاريكاتورى » .

والسخرية أرقى أنواع الفكاهة ، لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر ، وهى لذلك أداة دقيقة فى أيدى الفلاسفة والكتاب الذين يهزأون بالعقائد والخرافات . ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم وهى حينئذ تكون تهكمًا أوتقريعًا خالصًا . وقد تستخدم فى رقة استخدامًا لاذعًا إذ يلمس صاحبها شخصًالمسا رفيقًا كأن يرى مثلًا

مؤلفًا لكتاب من كتب مدارس الروضة ملأه بالرسوم والشخوص، فيقول له: إنه كتاب كلاسيكى، يقصد أن ثياب الشخوص ليست عصرية. وعلى ذلك فاللذع والتهكم والتقريع من ألوان السخرية.

وعلى عكس ما نجد فى اللذع من رقة يكون الهجاء، إذ يعبث صاحبه بمن يهجوه عبثًا ليس فيه رقة ولا خفة، بل فيه الفظاظة والخشونة، فصاحبه لا يهمه شعور الضحية المسكينة التى يعتدى عليها، إنما يهمه أن يخنقها خنقًا وأن يبلغ من ذلك الغاية. ومن أطرف صور الهجاء «كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش» محافظ القاهرة لعهد صلاح الدين، فقد وضعه ابن مماتى فى هجائه وبيان مظالمه وصوَّر ذلك فى صور مضحكة.

والنادرة هى الخبر القصير أو القصة القصيرة التى تضحك، وفى العادة تكون مكتوبة، وكتب الأدب العربى والمصرى جميعًا تمتلىء بنوادر كثيرة، فيها أخبار عن المعلمين والقضاة ورجال الشرطة والبخلاء وغيرهم.

أما الدعابة فأخف ألوان الفكاهة، وهى فكاهة الأشخاص الوقورين، إذ يقولون ما يدعو إلى الابتسام الخفيف لا إلى الضحك العالى. والمزاح خطوة بعد الدعابة نحو الضحك أو نحو الابتسامة العريضة، وهو لا يحمل خبثًا ولا سما، وإنما يحمل المرح والشعور بالابتهاج.

والنكتة فكاهة المجالس، ولابد لها من اثنين على الأقل، إذ

ينتهز أحدهما كلمة لصاحبه فيمدها، أو قل يمد فكرتها إلى حيث تعبر عن نقيض ما يريد، فيحس كأنه صاحبه أو محدثه ينصب له أشراكاً ليقع فيها. وهو يعتمد فى ذلك على ما يسمى فى عاميتنا باسم «القفش» كما يعتمد على التورية فى الألفاظ. ويستمد صاحب النكتة دائماً من سرعة البديهة وخفة الروح، فيقصد إلى مغالطة صاحبه فى ألفاظه أو مدها كما نقول وكأنه يسرقه أو يسرق منه كلماته. ويضحك الحاضرون لهذه السرقة العلنية المكشوفة التى تقوم على المناورات اللفظية.

وإذا بالغ الشخص فى مغالطاته، ولم يعتمد على ثان يجرى عليه هذه المغالطات، بل استغرق هو نفسه فيها، حتى خرج إلى لا منطقية خالصة كان ذلك هو الهزل بعينه، إذ نرى شخصاً يتكلم، وكأنما ألغى عقله إلغاء، فيسوق بدهيات فى شكل معلومات خطيرة مثلاً، أو يخلط فى كلامه تخليط النائمين أو الغافلين. ومن خير الأمثلة لذلك «كتاب نزهة النفوس ومضحك العبوس» لابن سودون الذى عاش فى عصر المماليك حيث نرى السلالم المنطقية فى كلامه تنقلب رأساً على عقب.

وهناك ضرب من الفكاهة لا يعتمد على كلمات ولا على حروف، وإنما يعتمد على الألوان والخطوط والظلال والأضواء، وقد شاع فى القرنين الأخيرين بأوربا، ونقلناه عنها، وكان لنا منه حظ فى

عصورنا القديمة، ونقصد التصوير الساخر «الكاريكاتورى» الذى يقف عند جوانب الضعف فى جسد شخص أو فى وجهه، ويكبّرها كأنما يريد أن ينمّى الضعف أو العيب الذى يكمن فيه إلى أقصاه، فنراه ينتهز فرصة، مثل تقويس حاجب، أو انحناء أنف، أو تجعد جبهة، أو انتفاخ خد، أو طول ذقن، أو ضيق عين، ويكبّر ذلك مشوّها ومستغلاً للطبيعة والخلقة. وبذلك تصبح الصورة الساخرة قوية التعبير عن صاحبها، لما أظهره الرسام فيها من تنافر فى أوضاع الجسد أو الوجه.

الضحك وأسبابه

هذه الألوان والأنواع المختلفة من الفكاهة إنما ترجع طرافتها إلى أنها تسبب لنا الابتسام أو الضحك، فتغمرنا موجة من السرور، ونحس بنشوة بهيجة. وتساءل الفلاسفة كثيرًا عن علة الضحك، ولماذا كان مظهرًا للسرور والفرح، وكثرت إجاباتهم، فمن قائل إنه صنيع فسيولوجى مادى يتصل بانتقال الشعور انتقالاً مفاجئًا من الأعصاب إلى العضلات، ومن قائل إنه صنيع نفسى ينشأ من إفراغ التعب الذى يصيبنا فى الحياة، إذ يخرجنا المضحك من حياتنا الجادة المجهدة، فنشعر بالراحة ونضحك. ويزعم آخرون أنه انفجار يحدث من انتظار أو من جهد يتحول فجأة لا إلى شىء، بل إلى فراغ مطلق، وكأن النتيجة غير المنتظرة هى التى تدفعنا دفعًا إلى أن

نضحك ونغرق فى الضحك بمقدار بعدها عنا ومفارقتها للمقدمات التى تسبقها.

ولبرجسون الفيلسوف الفرنسى المشهور كتاب فى الضحك بناه على نظرية طريفة هى أننا نضحك على الأشخاص ومنهم، لما أصابهم من تحول أخرجهم عن طبيعتهم العادية المألوفة لنا، إذ نراهم قد تصلَّبوا، وخرجوا عن عقولهم، وأصبحوا كأنهم آلات، فهم لا يتصرفون تصرف الإنسان الحر المختار، وإنما يتصرفون تصرف الآلات الصلبة التى لا تملك حرية ولا اختيارًا. وهو يبدأ كتابه بأننا لا نضحك إلا على أشخاص، فنحن لا نضحك من حيوانات ولا من أشياء فى الطبيعة. وليس ذلك فحسب بل لابد أن نكون هادئين تمام الهدوء حتى نصبح صالحين للضحك، أما إذا كنا فى حالة انفعال فإننا لا نسر حينئذ ولا نضحك، إنما نسر ونضحك حين نكون فى حالة عدم اكتراث أو عدم مبالاة، وأيضًا لابد أن نتصل بآخرين لنضحك، فإذا كنا منفردين أو فى عزلة لم نتذوق الضحك، إنما نتذوقه ونغرب فيه حين نكون فى مجتمع أو مع عدة أشخاص.

وأخذ يستعرض فنون الفكاهة ويطبق عليها نظريته الأساسية تطبيقًا دقيقًا لا نقرأه حتى نؤمن بصدق هذه النظرية الطريفة وأننا إنما نضحك من الناس وعليهم حين نراهم أمامنا، وقد فارقوا سلوكنا فى الحياة الذى يدل على اختيارنا وإرادتنا وتصرفوا تصرف الآلات، فلم يعد لهم منطقنا، إنما أصبح لهم منطق الآلة، أو قل

أصبحوا كأنهم لعب تحرَّك بأسلاك سواء فى أوضاع الجسم وحركاته أو فى أوضاع الكلمات ومدلولاتها ، وارتباطها فيما بينها . والمجتمع يضحك من هذه اللعب لخروجها على منطقه ، فضحكه قصاص عادل لها ، لأنها شذت عليه ، وتصرفت فى القول أو فى الوضع تصرفاً لا يألفه ، فهو يؤدِّبها بضحكه منها . فالضحك عقاب وقصاص وتأديب ، ينتقم به المجتمع ممن يتطاولون على منطقه ومعقوله .

وأياما كان السبب فى الضحك ، فالناس يضحكون دون أن يعرفوا لماذا يضحكون ، وهو ضحك يريح أعصابهم ويشرح صدورهم ، ويقوِّم أخلاقهم ، ويشعرهم بشىء من الصلة فيما بينهم ، ويجعلهم يحافظون على تقاليدهم وأوضاع مجتمعهم ، ويربى فيهم ملكة النقد ، ويوقظ فيهم التنبه إلى أخطائهم وأغلاطهم .

وهم يضحكون من كل ما يحسون فيه مخالفة للمألوف ، يضحكون من الممثل الهزلى وإشاراته وحركاته ، ويضحكون من الصور الساخرة « الكاريكاتورية » ويضحكون من المغفل والجاهل والبخيل والجبان ، ويضحكون ممن يقلدون أصوات الحيوانات وممن يحاكون القردة والنسانيس ، ويضحكون من المفارقات ومن الهزل الذى يؤدى إلى فوضى الكلام وكأن العقل قد نُوِّم ، ويضحكون من الهجاء والسباب والشتم ، ويضحكون من النوادر والنكت والمزاح . ثم هم يضحكون ضحك ازدراء أو ضحك إعجاب أو ضحك سخرية أو ضحك هزل أو ضحك انتصار أو ضحك عطف . فصور الضحك

أو قل صور الفكاهة ومنابعها كثيرة .

والأمم تختلف فى إنتاجها وقدرتها على تذوق ضروبها المختلفة . والمصريون من أكثر الأمم ميلاً إلى الفكاهة ، ومن هنا كان أدبهم غنيًا بألوانها ، وخاصة ما اتصل بالنكت وخفة الروح .

فى مصر القديمة

تأصل الفكاهة فى مصر

من المعروف أن ما عثر عليه الباحثون من أدبنا الفرعونى القديم لا يعدو رسومًا وأجزاء مبتورة منه، وحتى ما وجد كاملًا من قصص وغير قصص إنما وجد فى قبورهم، وكانوا يذهبون به فى الغالب نحو تمجيد الآلهة.

وليس من شك فى أن هذا يحول بيننا وبين الاطلاع الدقيق على فكاهات القوم، ومع ذلك فأغانيهم ورسومهم وصورهم تدل على أنهم عاشوا فى عصورهم معيشة بهيجة. وإذا كنا قد فقدنا نكتهم ونوادرهم فإن الرسوم التى خلفوها تفيض بروح الفكاهة. وفى كتاب «مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة» الذى نشرته مكتبة النهضة المصرية مترجمًا عن الألمانية عشرات الرسوم والصور

المتلاحقة التى تنبىء عن هذا الطابع المتغلغل فى نفسية المصريين.

فمن ذلك صورة هزلية لسيدة تتزين، وقد أمسكت المرآة بيدها اليسرى، وفى نفس اليد «الحق» الخاص بصبغ الشفاه الأحمر، وفى اليد الأخرى ريشة تطلى بها شفتيها، وكل ذلك فى وضع مضحك. وفى صفحة أخرى صورة فكهة لشخص أصلع، أرسل ذقنه ومد كفيه مدافعًا عن نفسه، كأنه يمنع من يريد أن يحلق ذقنه أو يصلحها.

ونرى صورة مضحكة لذئب يرعى ماعزًا والمصور يشير بذلك إلى ما يطابق المثل المعروف بين عوامنا إذ يقولون: «حاميها حراميها» حين يشترك خفير البيت فى سرقته مثلاً. ومن هذا اللون صورة لمعركة بين القطط والإوز. ومن رسومهم الفكهة رسم نرى فيه جيشًا من الجرذان يحاصر قلعة للقطط وتقدمت فرقة فدائية، فمدت على القلعة سلمًا واعتلاه فدائى كبير!. وهناك صورة تمثل مباراة فى لعبة الشطرنج بين أسد وغزال، والغزال يأمر الأسد بأن «يكش الملك» والأسد مكشر عن أنيابه والشرر يتطاير من عينيه.

ومن الصور التى لا نكاد نراها حتى نبتسم صورة أمير وأميرة بونت. وهما وافدان على فرعون لتقديم فروض الطاعة، وفيها نرى الأميرة قد تضخم نصفها الأسفل وتأخر فى وضعه عن النصف الأعلى، فأصبح شكلها مثيرًا للسخرية والضحك.

وما تزال خاصة الضحك على الغرباء منتشرة بين المصريين إلى اليوم، فهم يضحكون ويتندرون على لهجة الرومى والتركى

وغيرها. ولابد أنهم ضحكوا كثيرًا فى زمنهم القديم من أقزام الزنوج، وكانوا يعهدون إليهم بخدمتهم، ويتخذونهم للهو واللعب، وقد وجد المنقبون فى بعض المقابر طائفة من الأقزام وبجانبهم أحدب. وأكبر الظن أنهم جميعًا كانوا مستخدمين للتهريج عند صاحب المقبرة، أو أنه كان يتخذهم ندماء للترفيه عنه والتسلية أو بعبارة أخرى أدوات فكاهة وهزل.

التلاعب بالألفاظ

وكل هذه الصور والرسوم تعبير قوى ناطق عن روح المرح والفكاهة التى تأصلت فى نفوس الشعب المصرى من أقدم الأزمان. وليس بين أيدينا ما يفسر مدى استخدام المصريين القدماء للنكتة ولكن يظهر أنهم كانوا يتوسعون فى استخدامها على نحو ما توسع فيها أبناؤهم فى العصور الإسلامية المختلفة وفى عصرنا الحديث. ففى كتاب «مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة» أنه كان للمصريين ولع خاص بالتلاعب بالألفاظ، وبين تراثهم ومن مخلفاتهم نشيد فى مركبة لفرعون أُلّف على أساس التلاعب بالألفاظ، إذ يحصى مؤلفه أجزاء المركبة ويسميها، وفى كل مرة يذكر فيها اسم الجزء الخاص من أجزائها يعود فيذكره مرة ثانية بمعنى آخر يصف به قوة فرعون. فالكلمة ذات معنيين ويستغلهما صاحب النشيد دائمًا فى صنع نشيده متلاعبًا بهما.

وهذا التلاعب منبع النكتة التى تجرى فى الحديث، إذ تصبح الكلمة معدة بذاتها ليبرز فيها ذهول اللغة الذى يشبه ذهول أصحاب الغفلة. ففيها شحنتان مختلفتان، والمتحدث اللبق يستغل الشحنتين، فيورى بواحدة منها عن الأخرى، وبذلك يظهر ما فيها من قوة هزلية تضحكنا.

ومعنى ذلك أن الشعب المصرى وضع يده من أقدم الأزمنة على هذه المفاتيح اللغوية وما يطوى فيها من تلاعب، ولا نشك فى أنه استغلها للتفكه والضحك، لأنها بطبيعتها ترشد إلى هذا الاستغلال وأيضا فانه كان معدا من حيث مزاجه المرح لاستنفاد كل وسيلة فى هذا الجانب.

ولعل من الطريف أن نذكر هنا ما رواه بعض من اكتشفوا مقبرة حورمحب، إذ ذكر أنهم وجدوا غرفة منحوتة فى الصخر، وقد دفن فيها كلب حور محب وقرده الأثيران عنده، وكانت دهشتهم كبيرة حين رأوهما، فقد وجدوهما متقابلين وأنفاهما متماسّان فى وضع مضحك، ومضت آلاف السنين قبل أن تقع عين أحد من الناس على هذه الفكاهة.

السخرية من الغزاة

وبهذه الشاكلة كانت مصر الفرعونية تضحك، فلما دهاها ما دهاها من غزو الفرس واليونان والرومان لها ذهبت تنفس عن

عذابها وآلامها وكآبتها بفكاهات مرة مليئة بسموم اللذع والتهكم والسخرية .

وطبيعى أن يسخروا ويتهكموا بالفرس لأنهم كانوا غزاة ظالمين ، أما البطالسة فعلى الرغم من أنهم توددوا إليهم وبذلوا كل ما استطاعوا ليكسبوا عطفهم ، وينالوا حبهم ، فإننا نراهم ، وخاصة أهل الإسكندرية ، لا يتركون فرصة تمر بهم دون أن يصيبوهم بسهام تهكماتهم . وقد نبزوا كلا منهم بلقب ميزوه به ، فلقبوا بطليموس الأول بلقب الزمار ، أما بطليموس الثانى فقد أصابوه بغير سهم من فكاهاتهم ، وانتهزوا فرصة زواجه من أخته ، وسلطوا عليه أقذع الكلمات .

ونرى ثيوكريتوس الشاعر اليونانى الذى عاش فى الإسكندرية أثناء القرن الثالث قبل الميلاد يشير إلى هذه النزعة فى المصريين ، وما يطوى فيها من الفكاهة ، بل من السخرية المؤلمة بقوله : « إنهم شعب ماكر ، لاذع القول ، روحه مرحة » .

ونمضى إلى عصر الرومان فنجد الرومان يقسون عليهم فى حكمهم ، وسرعان ما يسلطون عليهم سهام سخريتهم ، وقد كادوا لايتركون قيصراً زار مصر من قياصرتهم دون أن يقدموا له هذه الفاكهة أو الفكاهة المسمومة ، وكانوا أحياناً لا ينتظرون حتى يفد عليهم القيصر الذى يريدون قذفه بهذه الحجارة المدمية ، فيصوبونها إليه من بعيد .

وكم من قيصر سلطوا عليه صوائب سهامهم، فمن ذلك أنهم نبزوا القيصر فسبسيان بلقب تاجر السردين، وقالوا إنه لا يساوى ستة مليمات، ولقبوا قيصراً آخر بلقب النسناس المدلل الصغير.

وكانت هذه السخرية الخبيثة تكلفهم أحياناً ثمناً غالياً، فقد كان القياصرة يغتاظون غيظاً شديداً ،فيقسون عليهم فى حكمهم. ومع ذلك لم ينتهوا عن هجائهم، بل ظلوا يقاومونهم ويسخرون بهم، وكأن مزاجهم الفكه الساخر كان يضطرهم ويلزمهم دائما بهذا الدفاع الساخر.

في العصور الإسلامية الأولى

شعراء فكهون

يُرْفَعُ كابوس الرومان عن صدر مصر ، وتضئ فيها تباشير فجر جديد ، هو فجر الإسلام ، وتصبح ولاية عربية ، وتظل معها أدوات فكاهتها وسخريتها . ولا تكاد تثبت شخصيتها وتستقل عن الخلافة لعهد ابن طولون حتى نجد لها شاعراً فكها مشهورا كان ينبز بالجمل الأكبر ، وكان لعبة للأمراء يمدحهم وينادمهم متظرفا متملحا ، يَرْوى لهم النوادر والنكت التى تطرفهم ، وهذه أحدى نوادره ، قال : « كان قوم كسالى ينامون تحت شجرة كمثرى ، تعاهدوا فيما بينهم ، لكسلهم ، أنه إذا سقط فى أفواههم شىء أكلوه ، وإلا فلا ، فسقطت كمثراة إلى جانب أحدهم ، فقال له الذى يليه : ضعها فى فمى ، فأجابه : لو استطعت أن أضعها فى فمك لوضعتها فى فمى » .

وبمثل هذه النادرة كان الجمل الأكبر يخف على ابن طولون وغيره، وخلفه على هذه الوظيفة من المنادمة والمفاكهة شاعر آخر لعصر الأخشيد فلقبوه بالجمل الأصغر، وكان مثل صاحبه خفيف الروح له قدرة بارعة على التسلية والترفيه. وكان بجانبه شاعر آخر يسمى سعيدًا، وكان نديمًا للأخشيد وكان يؤثره لما فيه من الحلاوة والهزل، وكان يلقب بقاضي البقر هزءًا ودعابة له.

سيبويه المصرى

لعل مصر لم تعرف فى عصورها الإسلامية الأولى فكها ساخرا على نحو ما عرفت فى شخص يسمى سيبويه المصرى رافق الدولة الإخشيدية، وكان يظهر التباله والحمق والجنون، ويضع كل ذلك مسرحا ينفذ منه إلى نقد هذه الدولة الأجنبية ونقد موظفيها المختلفين، نقدا فيه مرارة وخبث، وفيه تنفيس عما قد يقع على الناس من ظلم فى هذه العهود الإقطاعية الجائرة.

ولم يكن أحد فى عصره إلا ويخشى معرة لسانه، وكان يقف فى الأسواق يصيح بسببه وهجائه والناس يجتمعون ويضحكون. ولم يكن يسب ويهجو بلفظ قبيح، إنما كان ينهر ويزجر، مستخدما آية قرآنية أو حديثا أو سجعا يولده لوقته.

ويسوق ذلك بشىء من التخليط، فيُضْحك، إذ يصبح مظهرا للشعوذة وتشويش الفكر، ويقول السذج مجنون، ويقول العقلاء

بل جرىء لا يموّه ولا يمخرق، يواجه الحق ويذيعه دون تدليس أو تزييف.

وطبيعى أنه لم يكن يقصد إلى الإضحاك، فهو مؤمن بما يقول فى الإخشيد وغيره، وهو جاد كل الجد. ومن هنا يكون الضحك، لأنه يخالف مألوف الناس، إذ يرونه يعمد إلى سب أميرهم ورؤسائهم فيتجمعون حوله يشاهدونه، وكأنهم أمام مسرح هزلى. فمن ذلك أنه كان يطوف على حماره يوم جمعة، فرأى الناس محتشدين لرؤية موكب الإخشيد أثناء مروره إلى الصلاة فتوسط الجموع وصاح: «ما هذه الأشباح الواقفة، والتماثيل العاكفة، سلطت عليهم قاصفة، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة، وتغلى لهم قلوب واجفة؟» فقال له رجل: «هو الإخشيد ينزل إلى الصلاة»، فقال: «هذا الأصلع البَطين، المسمَّن البدين، قطع الله منه الوَتين، ولا سلك به ذات اليمين! أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ولا حاجب ولا حاجبان، ولا تابع ولا تابعان؟ لا قَبِل الله له صلاة، ولا قبل له زكاة، وعَمر بجثته الفلاة».

ولا ريب فى أن هذا الهجوم على الإخشيد كان يحدث تنفيسا عن الحرج فى نفوس سامعيه، فيضحكون ويغرقون فى الضحك. وكان يتخذ ذلك دائما منحدرا له إلى هجائه اللاذع. ومن الطريف أنه كان يورد هجاءه على الناس وهو واقف معهم يعظهم، إذ كان فقيها صالحا، فمن ذلك أنه بغتهم مرة أثناء وعظه، فقال: «حصلت الدنيا

على أقطع وأقرع وأرقع»، يعنى بالأقطع ابن بويه الديلمى صاحب بغداد، وبالأقرع سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب، وبالأرقع كافورا، وكانت قد صارت إليه شئون مصر. وكان يسميه فى مواعظه الخصىَّ لا يبالى.

وهذا كله هجاء سياسى لاذع كان يعتمد فيه سيبويه المصرى على مجاميع من الأخطاء فى الكلام ينفث فيها سمومه، ويسمع الناس من حوله هذا الهجاء، فيقولون مجنون يهذى، وهم يفحصون الأرض بأقدامهم ضحكا وسخرية بمن يعرض لهم. وارتفع نجمه لهذا الهجاء، وجالس أونوجور بن الأخشيد ونادمه كما جالس الماذرائى الوزير ونادمه. ولم يترك فى عصره موظفا كبيرا ولا قاضيا إلا تعرض له، وكانوا جميعا يرهبونه، ويرسلون إليه بالهبات والهدايا حتى يفدوا أنفسهم منه، ويفلتوا من لسانه. ومما روى الرواة من شعره قوله:

مـــا ليلةُ المشتـــاق بـــا　　عدت النَّوى عنـه أنيسه
أو لـيـلة المـلدوغ حـــا　　ذر ميتـةَ النفسِ النفيسه
بـأمـدَّ من لـيـل الـظريـ　　ـف إذا تجوَّع للهريســه

وفى هذه الأبيات ما يدل على ظرفه، فهو كان ظريفا من ناحية، ولذلك نادمه أونوجور وغيره، وكان من ناحية أخرى هجاء مصميا، يرمى بالكلام، وكأنه يرمى بالسهام.

فى العصر الفاطمى

الفكاهة السياسية

لا نصل إلى العصر الفاطمى حتى تتسع روح الفكاهة فى شعر الشعراء ، إذ أخذوا يرصدون بها كثيرا من الحوادث السياسية . وقد كثر القول بين الناس عن الفاطميين ونسبهم وهل ينسبون حقا إلى فاطمة الزهراء أو لا ينسبون ، ونجد شاعرا ساخرا يتسرب من خلال هذا الشك إلى تأليف مقطوعة ، بلغت به جرأته أن رمى بها على منبر المسجد الجامع يوم الجمعة ، فلما صعد العزيز ثانى خلفائهم تناولها ، فإذا فيها :

إنا سمعنا نسبا منكرا ... يُتْلَى على المنبر فى الجامعِ
إن كنت فيما تدَّعى صادقا ... فاذكرْ أبا بعد الأب الرابعِ
أو فدَعِ الأنساب مستورةً ... وادخلْ بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشمٍ ... يقصُر عنها طمَعُ الطامع

وهذا تهكم شديد، إذ يطلب إلى العزيز وأهله أن يدخلوا فى دوائر النسب الواسع إلى آدم ويتركوا دائرة النسب الضيق إلى بنى هاشم. وكان المصريون يتندرون بمثل هذا الشعر. وتقدم شاعر ثان فألقى على المنبر فى يوم آخر من أيام الجمعة رقعة كتب فيها:

بالظلم والجَوْر قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقهْ
ان كنت أُعْطيت علم غيبٍ ... فقل لنا كاتب البِطاقهْ

ولعله كان يسخر بذلك من الخليفة الحاكم وترهاته وما كان يدعيه من علم الغيب بل من الألوهية، إذ كانت له شيعة تقول هو ربهم الأعلى!. ولم تقتصر هذه السخرية السياسية على نسب الفاطميين وسلوكهم، بل اتصلت أيضا بإدارتهم وما كان من توظيفهم لليهود فى المناصب الكبرى، فقد احتج المصريون على ذلك بصور لاذعة، فمن ذلك قول بعضهم:

يهودُ هذا الزمان قد بلغوا ... غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزُّ فيهم والمال عندهمُ ... ومنهم المستشارُ والملك

ومازال المصريون يعنِّفون الفاطميين بمثل هذه القطعة حتى أبعدوا اليهود عن أعمال الدولة ودواوينها وكشفوا غُمَّتهم عن صدرها.

الفكاهة الاجتماعية

وهذه الفكاهة السياسية كان يرافقها فكاهة اجتماعية واسعة، وقد كثرت حينئذ مجالس الأدب وكثرت المطارحات والنوادر، وكثر من يحاولون أن يضيفوا إلى طنبور الضحك نغمة بل نغمات، وكان من آثار ذلك أن اتسع النبز بالألقاب، فنجد شاعرا ينبز بالجهجهان وثانيا يلقب بشَلَّعْلع، وثالثا بالكاسات، ورابعا بالوضيع، وخامسا بالنسناس، وسادسا بابن مكتنسة، وكان ماجنا، يظهر الفقر والتصعلك، وله يصف قبح منزله وضيقه وقذارته وأن الشمس لا تدخله:

لِىَ بيتٌ كأنه بيت شعرٍ	لابن حجاج مِن قصيدٍ سخيفِ
أينِ للعنكبوت بيتٌ ضعيفٌ	مثله، وهو مثلُ عقلى الضعيف
بقعةٌ صدَّ مطلعُ الشمس عنها	فأنا مذ سكنتها فى الكسوف

وفى كلمة الكسوف تورية واضحة إذ أراد بها الخجل لا كسوف الشمس المعروف. وأراد مرة أن يصور كبر سنه وما أصابه من رجفة الشيخوخة، فألف هذا البيت وهو من قطعة فكهة طويلة:

قد كَبِرْ بِرْ بِبِرْ بِبِرْ	تُ وعقلى إلى وَرا

وواضح أنه ارتعش أثناء نطقه لكلمة كبرت، فألف من رعشته الشطر الأول دالا على ما أصابه من ضعف وشيخوخة.

ابن قادوس الدمياطى

وربما كان ابن قادوس الدمياطى كاتب الإنشاء فى أواخر العصر الفاطمى أهم شاعر فكه عرفته مصر الفاطمية، فقد روت له كتب الأدب طرائف كثيرة من فكاهاته، وهى فكاهات فيها لذع وتهكم، فمن ذلك تهكمه بشاعر أسود وكان صديقا له، ومما قال فيه:

إن قلتَ من نارٍ خُلقـ ـتَ وفُقْتَ كل الناس فهما
قلنا صدقتَ فما الذى أطفاك حتى صرت فَحْما

وقال فيه أيضا:

ذو عارضٍ كالغراب لونًا وشاربٍ مثل ريشِ بَبْغَا

وكان ابن قادوس ماهرا فى استخدام مثل هذه التهكمات، وما يتصل بها من سخرية. وكان يتحول أحيانا هاجيا هجاء مرا فلا يستحى ولا يخجل. ومن نظيف هجائه:

وليس كلاما ما يقول وإنما يجيب الصَّدَا من رأسه من فراغهِ

وهذا إقذاع فى الهجاء، كان لا يقوله حتى يدور على كل لسان فى عصره، لما يحسن فيه من تسديد السهم إلى ضحيته، وله فى وصف بعض المنافقين فى زمنه:

حـولـه اليـوم أنـاسٌ كـلهم يُـزْهَـى بِـرَائِـهْ
وهْـو مثـل المـاء فيهم لـونُـه لـون إنـائـه

وكأنه أراد أن يسلط على هذا المنافق نورا يفضحه، فلا يعود إلى نفاقه أبدًا .

دعايات وتوريات

فى كل جانب من جوانب الشعر لهذا العصر نجد صورا من هذه الفكاهات الساخرة، كما نجد صورا من الفكاهات الخفيفة التى لا يراد بها إلى أكثر من الدعابة والمزاح، كقول شاعر يسمى الجليس بن الحباب يشكو طبيبا تعهده وهو محموم ولم يشفه دواؤه، فقال متندرا عليه:

طبيبٌ طِبُّـه كغرابِ بَـيْنٍ يفرِّق بين عـافيتى وبينى
أتى الحمَّى وقد شاخت وباختْ فردَّ لها الشبابَ بنسختين
ودبَّـرهـا بتـدبـيرٍ لـطيف حكاه عن سِنانٍ أو حُنَيْن
وكانت نوبةً فى كل يومٍ فصيَّـرها بحـذقٍ نـوبتـين

وهو يشير بالنسختين إلى وصفته أو دوائه وأنه كان ورقتين يتعاطى ما فيهما. وعرض لادعائه وما يزعمه من أنه تلقن تدبير دوائه عن شيخين من شيوخ الطب فى العصر العباسى هما سنان بن ثابت وحنين بن إسحق. وكانت الحمى تزوره مرة كل يوم

فأصبحت تزوره بدوائه مرتين. وكل ذلك يمزح به الشاعر فى خفة وبدون ألم أو إيذاء.

وأكثر الشعراء فى هذا العصر من لعبة التورية، على نحو ما مر بنا عند ابن مكنسة، ويقول شاعر آخر من الشعراء لهذا العهد فى زمار:

وزامرٍ يكذب فيه عائبُـهْ   تكثر من صنعته عجـائبُهْ
يحجب صَبْرَ المرء عنه حاجبُه   فيشكر الشاربَ منه شاربُه
كأنما ناياتهُ ذوائبُهْ

وواضح أنه ورَّى فى حاجب وشارب وذوائب. وأشرنا من قبل إلى أن المصريين القدماء عرفوا هذه اللعبة من لعب الفكاهة. ولعل ذلك يفسر لنا كيف أن مصر هى التى سبقت بلاد العالم العربى إلى إذاعتها فى الأدب شعره ونثره، وظل لها فيها طابع الخفة والرشاقة، فقد مرنت على إتقانها من قديم الأزمنة، وكأنما لقن الآباء أبناءهم فى لغة الضاد هذا الحس الدقيق الذى يعرف كيف يستغل المعنيين المختلفين لكلمة واحدة، ويبرز ذلك فى شكل يصيب السامع بشىء من الذهول، فيضحك، لترقبه شيئا حدث عكسه.

فى العصر الأيوبى

الروح الفكاهية

ظلت للمصريين فى هذا العصر روحهم الفكاهية على الرغم مما كان فيه من حروب صليبية، فهى النبع الذى لا يجف فى أنفسهم، مهما شُغلوا بحروب وأحداث. وقد ذهبوا يوغلون فى لعبة التورية الخفيفة، ومن أشهر من عنوا بها القاضى الفاضل وزير صلاح الدين، وكاتبه ابن سناء الملك، غير أن أكثر ما صنعاه يغلب عليه الجانب التعليمى، ولذلك كانت تورياتهما لا تثير فينا الضحك إلا نادرا. ولا شك فى أن البهاء زهيرا الذى جاء من بعدهما كان أحلى منهما روحا وأخف دما، وقد كان يكثر فى شعره من التظرف والمزاح والدعابة، ولعل ذلك أحد الأسباب فى كثرة الأساليب الدارجة عنده على نحو ما نرى فى قوله:

أرِحني منك حتى لا أرى منظرك الوَعْرَا
فقد صرت أرى بُعْدَك عنى الراحةَ الكبرى
فما تنفع فى الدنيا ولا تنفع فى الأخرى

فكلمة « بعدك راحة » و « لا تنفع » من الكلمات التى تدور على ألسنة المصريين. ومن مقطوعاته الفكهة هذا المزاح مع صديق له على بغلته:

لك يا صديقى بغلةٌ ليست تساوى خَرْدلَهْ
تمشى فتحسبها العيو نُ على الطريق مشكَّله
وتخال مدبرةً إذا ما أقبلتْ مستعجلهْ
مقدارُ خطوتها الطويـ ـلة - حين تسرع - أنمله
تهتز وهْىَ مكانها فكأنما هى زلزله

فالمصريون لم ينسوا طبعهم أثناء الحروب الصليبية، بل لقد خلف لنا هذا العصر طرفة فكاهية مشهورة هى:

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

هذا الكتاب أقدم الكتب الفكهة، بالمعنى الدقيق للفكاهة، فى تاريخ مصر الإسلامية. ألفه الأسعد بن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين. كان آباؤه من نصارى أسيوط نزحوا إلى

القاهرة فى عهد الفاطميين فقرّبوهم وفوّضوا إليهم كثيرا من شئونهم وأعمالهم. فلما قدم صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من قِبَل نور الدين صاحب الشام، وأصبح إليهما أمر مصر، وجدنا هذه الأسرة تدخل فى الإسلام، ورعاها صلاح الدين، فجعل رئيسها الخطير بن مماتى قيِّما على ديوان الجيش، فلما توفى خلفه ابنه الأسعد فى عمله، ثم أسندت إليه الشئون المالية، فأحسن تدبيرها وتصريفها.

واشتهر الأسعد بن مماتى فى عصره بسرعة البديهة واللذع فى النادرة، وقد تعلق بشخصية عاصرته، هى شخصية قراقوش التركى أحد قواد صلاح الدين وأصفيائه. وكان فيه على ما يظهر شيء من الشدة والقسوة. وكان صلاح الدين يسلم إليه مقاليد مصر حين يغيب عنها فى حروبه الصليبية، وهو الذى قام على بناء قلعة الجبل المعروفة بقلعة صلاح الدين. وقد وضع عليه ابن مماتى الحكايات المضحكة التى تصور حمقه فى أحكامه وغفلته وبلاهته، ونسّق هذه الحكايات فى كتاب سماه «كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش» ونراه يستهله بقوله: «إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، والشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق. ولا يقدر أحد من عظم منزلته، أن يرد على كلمته، ويشتط اشتطاط الشيطان، ويحكم حكما

ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين».

ويزعم بعض المستشرقين، وهو الأستاذ كازانوفا الذى عنى بنشر الكتاب وبحثه إلى أن ابن مماتى لم يؤلف هذا الكتاب لغرض السخرية فقط من ظلم قراقوش بل ألفه أيضا سخطا على دولته الأيوبية وهو زعم مخطئ إذ كان ابن مماتى من رجال الدولة وموظفيها الكبار، مما يؤكد أنه لم يرد إعلان السخط على الدولة الأيوبية، وكل ما يمكن أن يقال أنه ربما أراد أن يسخر ممن تستخدمهم تلك الدولة من الأجانب أحيانا فى حكم مصر، وكان قراقوش تركيا. وفى رأينا أنه ظلمه ظلما بينا بوضعه عليه هذه النوادر الساخرة من حكمه بدليل ثقة صلاح الدين الأيوبى فى نيابته عنه بمصر واعتماده عليه فى تدبير شئونها، ولولا وثوقه بكفايته ما فوضها إليه. وفيما يلى بعض تلك النوادر المفتراة على قراقوش.

من نوادر الكتاب

أول ما نلقاه فى الكتاب من هذه الحكومات أن سيدة حجازية تقدمت لقراقوش تشكو له جارية مملوكة لها، فعجب أن تكون امرأة بيضاء مملوكة لسيدة سوداء، فرد شكواها عليها، مدعيا أنها ليست السيدة، بل هى الجارية، والجارية هى السيدة، وهم بحبسها

لولا أن تدخلت الجارية فعفت عن سيدتها.

وتمضى حكومات قراقوش على هذا النحو المضطرب: فمن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا «أجرودا» كان ما يزال يعبث بلحيتيهما، ونظر قراقوش إليهما وإلى خصمهما المتهم، فلم يجد له لحية. حينئذ قلب الوضع فى القضية، إذ ظن أنهما هما اللذان اعتديا عليه بنتف لحيته، فصاح فى غلمانه: «ودوهما (خذوهما) إلى السجن، ولا تخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الرجل». وهكذا رد الأمر إلى نصابه على ما ظن وتصور!

ومن هذه الحكومات المضحكة أن الشرطة جاءته يوما بأحد غلمانه، وقد قتل نفسا محرمة بغير حق، فقال: «اشنقوه» فقيل له: أنه حدّادك الذى يَنْعَلُ لك الفرس، فإن شنقته انقطعت منه، ولم تعد تجد من ينعل لك فرسك، فنظر أمام بابه، فرأى رجلا قفّاصا، فقال: اشنقوا القفاص وسيّبوا (اتركوا) الحداد. وبذلك أنقذ الموقف فى ظنه!.

ونحن إنما نضحك من هذه الحكومات لأن منطق الحكم فيها ليس هوالمنطق الذى ألفناه، فإن قراقوش يتصرف فى القضايا بحمق غريب، وهو حمق لا يستقيم مع عقولنا ولا منطقنا، حمق فيه طيش وفيه غفلة وفيه ما يذهل ويحير، وفيه ظلم صارخ بل ظلم مضحك. وهل يريد ابن مماتى غير ذلك؟ إنه لا يريد إلا أن يعرض علينا قراقوش فى صور مضحكة تضحكنا من حكوماته فى الناس

وما تتضمن من غباء ونزق وما تخفى فى باطنها من ظلم يجسمه ابن مماتى تجسيما. وإننا نضحك لا للظلم الذى وقع على هؤلاء الأشخاص فقط، وإنما أيضا للتباين بين المقدمات والنتائج، فسيدة تدخل عنده تشكو له خادمتها، فإذا هما تخرجان فى حالة شاذة، إذ نرى السيدة أصبحت خادمة، والخادمة أصبحت سيدة. وكذلك الشأن فى الرجل «الأجرود» فقد دخل بدون لحية، وخرج ولا بد له من لحية، ألا أنها نتفت، أو قل: دخل جانيا وخرج مجنيا عليه. وفى النادرة الثالثة نرى القاتل يبرأ من جنايته، والبرىء يؤخذ بفعلته. وكأننا لسنا بازاء دار من دور الحكم والقضاء، وإنما نحن بإزاء ملعب هزلى، نرى عليه رجلا يأخذ سمت الحاكمين، ويصطنع شاراتهم، ولكنه لا يكاد يبدأ النظر فى القضايا والحديث مع الخصوم: المدعين والمتهمين، حتى يشوّش عليه الأمر، فإذا هو يحكم دائما حكومة مهوسة، وأى هوس يفوق هوس هذا الحاكم الذى يقلب الأوضاع فى قضاياه قلبا يزرى بالعقول، لأنه يلغيها إلغاء، يلغى ما فيها من منطق وفكر مستقيم، ويردنا إلى فكر مضطرب معوج لا نظام له، فكله اضطراب وفوضى.

ونستمر فى قراءة كتاب الفاشوش، فإذا ابن مماتى يقص أن قراقوش طلب إلى أحد القضاة أن يهيىء له حساب القمح والشعير والفول والحمص، وصدع القاضى بأمره، إلا أنه وضع الحساب كله فى صحيفة واحدة، فاختلط الأمر على قراقوش، وظن أن القاضى

خلط هذه الأصناف بعضها ببعض، ولولا ذلك ما استطاع أن يجمعها فى صحيفة واحدة، وأمر بحبسه. وتنبه القاضى للمسألة، فأرسل إليه من الحبس بحساب كل صنف فى صحيفة على حدة. حينئذ سُرَّ قراقوش، وعفا عنه قائلا: «لقد تعبت يافقيه! نقَّيت هذا من هذا وذا من ذا، زفّوه فى المدينة». أرأيت إلى ابن مماتى كيف يسخر من قراقوش، إذ جعله يظن حين أفرد القاضى كل صنف بصحيفة أنه نَحَّى الأصناف بعضها عن بعض، بعد أن خلطها بعضها ببعض.

وينقلنا ابن مماتى من هذه النادرة إلى نادرة أخرى لا تقل عنها طرافة، وذلك أن النيل توقف بمصر أياما، فنظر قراقوش، فرأى جمال السقايين وهى تسير فى شوارع القاهرة عشرين عشرين، فقال يا غلمان! نادوا فى المدينة: «قد أمر بهاء الدين قراقوش أن لا يلى (يحمل ماء) أحد من البحر إلا جملا واحدا» ففعلوا ذلك، فأوفى النيل، فقال: ياهؤلاء كيف رأيتم رأيى عليكم؟ ما هو إلا رأى مبارك. وكأن قراقوش ظن أن هذه الجمال هى التى تنقص ماء النيل، فتمنع الفيضان! وأيضا فقد فاته أنه إنما حرم على هذه الجمال أن تحمل الماء مجتمعة، ولم يحرم عليها أن تحمله منفردة، فحكمه من هذه الناحية لا نتيجة له، ولكنه قراقوش مُثْلة عصره والعصور التالية فى الغفلة والغباء.

وعلى هذه الشاكلة شهَّر ابن مماتى بقراقوش وحكوماته فى

الناس، وهو لم يبلغ ذلك، ولم يصنعه، بالشعر، وكان شاعرا ممتازا، وإنما بلغه وصنعه بهذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة، وكأنه كان يريد أن يطابق بين ما يرويه وبين اللغة الحقيقية التى كانت تدور بين قراقوش ومن حكم بينهم من الناس، حتى يحافظ على أصل نوادره محافظة دقيقة. ولعله كان يريد لهذه النوادر أن تشيع بين العامة، ومن أجل ذلك اختار لها هذه اللغة الدارجة. وهى فعلا قد شاعت، فإن المصريين فى مدنهم وريفهم كلما نزل بهم حاكم ظالم قالو «دا ولا حكم قراقوش». والمعقول أن يكون على الأقل لهذه الحملة التى حملها ابن مماتى على قراقوش أصل من حكوماته أو أحكامه.

ووفق ابن مماتى توفيقا منقطع النظير حين اختار دار الحكومة ليعرض فيها قراقوش هذا العرض الساخر، وهو عرض ربما أراد به – كما أسلفنا – أن يشوه من تصطنعهم الدولة الأيوبية من الاجانب فى أعمالها وشئونها، ونراه يستمر فيروى تلك النادرة، وهى أن شيخا وصبيا احتكما إلى قراقوش فى دار، كل منهما يدعى أنها له، فلما مثلا بين يديه قال قراقوش للصبى: أمعك كتاب يشهد لك؟ ثم رجع إلى نفسه أو إلى صوابه، فتراءى له أن الدار لا تكون إلا للشيخ الكبير. حينئذ قال للصبى: ياصبى ادفع له داره، وإذا صرت فى عمر هذا الشيخ الكبير دفع لك الدار!

وعلى هذا النسق ما يزال ابن مماتى يصور قراقوش فى هذه

الصور الهزلية التى كان يسمر بها المصريون لعهد صلاح الدين سمرا فيه لهو وتسلية . والغريب أن ابن مماتى حين تصدى لقراقوش فى هذه النوادر لم يترك منه جانبا إلا شوهه ومسخه حتى مَعْرفته الدينية ، فقد قص أن شاعرا تقدم إليه ليمدحه ببعض شعره ، فلما فرغ من إنشاده قال له قراقوش : «يامقرىء ! لقد قرأت قراءة طيبة» . فقد ظنه يتلو قرآنا ، وكأنه لا يفرق بين القرآن والشعر. وليس ذلك كل مايريده ابن مماتى به ، فإنه يريد شيئا وراء ذلك . يريد أن قراقوش لا يعرف ما يقال فيه مدحا مما يقال فيه ذما .

وواضح من كل ما سبق أن ابن مماتى عرف كيف يحيل قراقوش إلى شخصية هزلية . وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطا وألوانا أخرى ، إذ نسبت إليها كثيرا من القصص المضحكة ، بل إننا نجد كتبا جديدة تروى نوادر قراقوش ، فقد ألف السيوطى فى أواخر عصر المماليك كتابا استعار له نفس اسم كتاب ابن مماتى ، ولكنه يختلف عنه فى كثير من نوادره ، مما يدل على أنه من صنعه ، أو على الاقل من صنع الأجيال التالية لابن مماتى ، وكأنما أصبحت شخصية قراقوش شخصية رمزية ، لكل حاكم أجنبى لمصر ، فكان المصريون طوال الحكم التركى فى عصر المماليك وبعده يقصون نوادره ، ويضيفون إليها نوادر جديدة .

من النوادر فى رواية السيوطى

ومن النوادر التى ذكرها السيوطى أن عملة (نقودا) سُرقت فى زمنه، فقال لأصحاب العملة: «الحارة بتاعتكم لها درب (يريد بابا) فقالوا له نعم، فقال: اذهبوا ائتونى به، ففعلوا وجاءوا بالدرب إليه، فقال: مدوه (يريد أن يضربوه) فقالوا يامولانا هذا خشب لا يعقل، فقال: افعلوا ما آمركم به، فمدوه وضربوه. ونزل قراقوش، ووضع أذنه بجانبه، وجعل يوشوشه، فلما فرغ قال: اجمعوا لى باقى أهل الحارة. فلما حضروا قال لهم: الدرب يخبرنى أن الذى سرق العملة على رأسه ريشة، وكان سارق العملة واقفا بجملة الناس، فتوهم، ورفع يده إلى رأسه، فرآه قراقوش، فأمر به، وقرره بالضرب، وأحضر العملة ودفعها إلى أصحابها». وما من ريب فى أن هذه النادرة لو صحت لأضحكت الناس طويلا فى عصره.

ويحكى السيوطى أيضا أنه «كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلا، وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما، فزاد عليه الدين، وما ماتَ والده، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده حَيًّا، فدخل هو والدائنون عليه، وغسلوه، وكفنوه ووضعوه فى النعش، وهو يستغيث فلا يغاث، وجاءوا حول تابوته بذاكرين يصيحون حوله، فلما دخلوا للصلاة عليه (فى المسجد) اتفق أن قراقوش كان مارا، فنزل وصلى عليه، فلما سمع الميت بذلك قال: الحمد لله جاءنى

الفرج ، فجلس فى التابوت ، وقال : ياмولانا السلطان ! خلّص حقى لى من ولدى ، فإنه يريد دفنى بالحياة ، فقال له : كيف تدفن والدك بالحياة ؟ فقال الولد : كذب علىَّ ياмولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت ، ولا حملته إلا وهو ميت ، وهؤلاء يشهدون بذلك ، فقال للحاضرين : أتشهدون بذلك ؟ فقالوا : نشهد بما قال الولد ، فالتفت قراقوش للميت ، وقال : أنا جُننت ! أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين ، روح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم . فحملوه ودفنوه حَـيًّا ، فى ذمة قراقوش » .

ولاشك فى أن هذا نموذج هزلى ويحكى السيوطى أيضا من نوادره أنه طار له بازى ، فقال « اقفلوا باب النصر (زويلة) فإن البازى لا يجد له موضعا يطير منه » .

وكأن الغفلة تشخصت أو قل تجسمت فأصبحت هذا الشكل الإنسانى لهذا الحاكم المسمى قراقوش . وهو شكل إنسان فى الظاهر ، أما فى الباطن فهو شىء معوج ، وكأنه لعبة تحرك بأسلاك الغباء والغفلة واللامنطق ، فليس له منطق معقول ولا مفهوم .

وعلى هذا النمط نجد شخصية قراقوش تصبح شخصية مثالية لكل حاكم أجنبى فى مصر ، ولذلك كثر القصص حوله ، وكثرت النوادر التى تُعْزَى إليه . وهناك كتاب ألف عنه فى عصر متأخر ، وهو

يذهب مذهب الكتابين السابقين ، ويسمى « الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » .

والحق أن ابن مماتى نجح نجاحا كبيرا فى تصوير شخصية قراقوش وعرضها أو عكسها فى هذه المرايا المحدبة من فكاهاته ونوادره . وأكبر الظن أن كلمة «كراكوز» التركية التى تطلق فى الشام وتركيا على خيال الظل ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش وإن كان هناك من يذهب إلى أنها مكونة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و «جوز» أى عين ، فيكون معناها « العين السوداء » يقولون لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة على الناس كانوا من الغجر الجوالين . وقد دخلت الكلمة إلى مصر ثانية باسم «أراجوز» . ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على مدى توفيق ابن مماتى فى التشنيع على قراقوش والتندر عليه .

فى العصر المملوكى

السخرية من الحكام الترك

لعل هذه الروح المصرية الفكهة لم تتسع فى عصر كما اتسعت فى عصر المماليك ، إذ فرغت مصر أو كادت من الحروب الصليبية ، وخلّد المصريون إلى رخاء شاعت فيه فنون من اللهو واللعب ، وتفجرت ينابيع الفكاهة فى أنفسهم .

وإن من يتصفح آثار الشعراء لهذا العصر لا يلبث أن يغرق فى الضحك لكثرة مادأبوا عليه من مزاح ومداعبات ، ففى كل مكان وفى كل ناد لاهمَّ للشعراء إلا أن يتحفوا معاصريهم بنكتهم ونوادرهم ، وهى نكت ونوادر لم يقفوا بها عند رفقائهم وأصدقائهم من المواطنين، بل تعدوهم إلى ساستهم وحكامهم الأجانب من الترك المماليك . فمن ذلك : لما قُتل السلطان حسن وكان فيه ميل

للهو وحب للنساء قال بعض الشعراء متهكما:

لما أتى «للعاديات»و«زلزلت» حفظ«النساء» وماقرَا«للواقعه»

وواضح أنه استعان بهذه السور من القرآن الكريم ليعبر بها عن لهو هذا السلطان وما يريد من سخرية به وبسيرته ، وفى كلمة « الواقعة » تورية واضحة بمقتله .

وكان الشعراء ماهرين فى استخدام مثل هذه التورية بحكامهم ينفسون بها عن حرجهم وضيقهم بهم ، وقد يهجونهم هجاء صريحا لايورّون فيه كقول بعضهم فى وزير يسمى البباوى :

قالوا البباوى قد وزَرْ فقلت كلا ، لا وزَرْ
الدهرُ كالدولاب لا يدور إلا بالبقر

وفى كتب التاريخ أنشودة عامية كان يتغنى بها العامة لعصر السلطان بيبرس الجاشنكير ، وكانوا يكرهونه كما كانوا يكرهون نائبا تتريا له نبزوه بلقب « دقين » تندرا عليه لأنه كان أجرد وانتهزت العامة فرصة غياب النيل عن موعده ، وغنت فى المتنزهات :

سلطاننا ركين ونائبو دقين
يجينا الماء من اين
هاتوا لنا الأعرج يجى الما يدّحرج

ويريدون بكلمة « ركين » أنه مركون ، أما الأعرج فهو الناصر محمد بن قلاوون ، إذ كان به بعض عرج ، وكانت العامة تؤثره على بيبرس ، وتريده على العرش .

وأينما وليت وجهك فى صحف هذا العصر وجدت الشعراء يضحكون معاصريهم على حكامهم وأمرائهم ضحك سخرية وهزء تارة ، وضحك مزاح ودعابة تارة . فمن ذلك مارواه المؤرخون من أن الطبرس والى باب القلعة ، وكانوا ينبزونه بالمجنون ، أقام عمارة فوق قنطرة ، وعقدها قبوا ، فسموها المجنونة ، وقال شاعرهم :

ولقد عجبت من الطُّبرس وصَحْبه
وعقولهم بعقوده مفتونه
عقدوه عقدا لايصحّ لأنهم
عقدوا لمجنونٍ على مجنونه

وكان بين أمراء المماليك أمير يسمى طشتمر ، وكانت العامة تنبزه باسم « حمص أخضر » فاستغل الشعراء هذا النبز أو هذا اللقب ، وتندروا عليه كثيرا ، فمن ذلك مداعبة بعضهم له وقد رجع من سفر :

لما رجعت إلينا من بعد ذا البعد والبين
خلناك تحنو علينا ياحمص اخضر (بقلبين)

ومعروف أن الحمص الأخضر ذو قلبين مجموعين . ويقول فيه شاعر آخر متمما للنكتة فى اسمه أو فى لقبه :

وبالدنا حزت مالا ملأت منه الخزانه
وكم عليك قلوب ياحمص اخضر (ملانه)

وفى كلمة ملانه تورية واضحة لأن العامة فى مصر يسمون بها « الحمص الاخضر » .

التوسع فى التورية والفكاهة

توسع الشعراء فى هذه التورية اللفظية أثناء هذا العصر ، واشتهر بها السراج الوراق والحمامى ، وان فى اسميهما مايدل على طابع العصر ، إذ نرى بعض أصحاب الحرف الذين يميلون للنكتة يدخلون فى آفاق الشعر ، فيمزجونه بروحهم الخفيفة .
ومن أجمل توريات الوراق قوله فى شخص دعاه إلى طعام فيه الخضار المعروف باسم رجله :

وأحمقٍ أضافنا ببَقْله
قد مدَّ فى وجه الضيوف (رِجْله)

ودائما نجد هذه التورية تلمع فى صحف الشعراء جميعا ، فهى بدع العصر ، وكل شاعر يطلبها . ومن أمثلتها قول بعضهم وقد بلغ

النيل ستة عشر ذراعا ، فعم وادى الجيزة حتى صافح الهرم :

قالوا علا نيلُ مصرٍ فى زيادته
حتى لقد بلغ الأهرامَ حين طما
فقلت هذا عجيبٌ فى بلادكمُ
أن ابن ستة عَشْر يبلغ (الهرما)

وكل شيء كانت تقع عليه أعينهم كان معرضا لهذه التوريات . فمن ذلك قول بعضهم فى لعبة الشطرنج المعروفة .

إن صاح فى الأقران لى بَيْدقٌ
تموت منه الشاة فى جلدها

والبيدق : اسم العسكرى فى الشطرنج. وتعرضوا لأسمائهم ولألقابهم كثيرا ، يستخدمونها فيما يريدون من تورية ، فمن ذلك قول شاعر فى عالم يسمى ابن جمعة :

عجبا كيف فاق أهل المعانى
فى فنون العلوم وهْو (ابنُ جمعه)

ومن ذلك قول آخر فيمن يسمى عيسى موريا فى اسمه ، لأن العيس تطلق على الإبل وهو يلاحظ ذلك :

عيسى ومن مدحوه ماشِمْت فيهم رئيسا
وما رأيت أناسا لكنْ حميرا و (عيسا)

ومن أطرف ما جاء فى ذلك قول ابن الصائغ فى الشيخ علاء الدين بن دقيق العيد مستغلا لاسمه، ضاحكا على ذقنه :

لعلاء الدين ذقنٌ تملأ الكفَّ وتفضُلْ
فاعمل المنخل منها (لدقيق العيد) وانْخُل

ويدل ذلك من بعض الوجوه على أن هذه الروح الفكهة الخفيفة كانت منتشرة فى الناس جميعا حتى فى الشيوخ . ومن هذا اللون من التوريات البديعة أن بدر الدين الدميرى كان يلقب بكتكوت، فقال فيه بعض أصدقائه :

إن الدميرىَّ صديقى فلا أسمع فيه قول واشٍ ولاحْ
ولا أرى كالغير تقبيحه بل هو عندى من (ملاح الملُاح)

والتورية واضحة فى كلمة ملاح الملاح، ويظهر أن هذا النداء على الكتاكيت كان معروفا فى مصر منذ ذلك الحين ! . وهناك شخص كان يسمى على باى بن برقوق نبزه بعض أصدقائه باسم زلابية، وأشيع ذلك، فقال بعض الشعراء .

قد شبَّهوه بمن يُدْعَى زلابيةً
وصحَّ تشبيههم والأب برقوقُ
لكنهم فاتهم فى الوزِّ نسبته
فإن إسم أبيه نصفُه (قوق)

وهو يستغل استغلالا واضحا كلمة برقوق لينسبه فى الإوزّ .
ومن التوريات التى رويت أيضا عن هذا العصر تورية للشاعر الفكه إبراهيم المعمار صنعها متهكما على شخص طلب إليه أن يصوم «الأيام الستة البيض» بعد شهر رمضان ، فقال متماجنا :

شهرُ الصيام تولىٍّ فراقُه يومُ عيدى
فقيل شَيِّعْ بسِتٍّ فقلت أيضا وسيدى

وأكثروا من التوريات فى ألوان الطعام ، وخاصة القطايف ، ونسجوا فيها كثيرا من المداعبات والممازحات . ولبعضهم فى غلام كان يطوف صباحا بأقداح الفول :

يطوف بأقداح (العوافى) على الورَى
ويُصْبح بالخير الكثير (يفوّلُ)

والتعبير بأقداح العوافى ظريف وكذلك التعبير بكلمة يفول ، وهو يريدها من الفول لا من الفأل وإن تضمنته . ولابن نباتة الشاعر المشهور يشكر صديقا على هدية ثمينة من الديكة :

وصلتْنا ديوكُ بِرٍّك تزهو
بوجوهٍ جميلةٍ مستجاده
كلُّ عُرْفٍ يروق حسنا وإنى
أرتجى أن تكون (عُرْفا) وعاده

وأهدى إليه صديق آخر تمرا رديئا ، فكتب إليه بهذين البيتين مؤديا له حقه ، ذاكرا فضله :

أرسلت تمرا بل نَوى فقبلتُه
بيد الوداد فما عليك عتابُ
وإذا تباعدت الجسومُ فودُّنا
باقٍ ونحن على (النَّوَى) أحباب

وعلى هذه الشاكلة كانت التورية على كل لسان ، واستخدمها الشعراء فى كل شىء نظموا فيه وفى كل موضوع حتى فى الرثاء ، إذ نجد ابن نباتة يرثى السلطان الأفضل صاحب حماة إحدى بلدان الشام ، فيقول :

وما مات إذ ماتتْ بحزنٍ نساؤهُ
وماتتْ بأحزان البلاد (حَمَاتُه)

فورَّى فى كلمة حماة ، ولم ينقذ الرثاء الكلمة منه . وفى هذا دليل واضح على أن الشعراء اندفعوا فى هذا العصر اندفاعا شديدا نحو التورية ، وكأنما أعجبهم فيها ماتتضمنه من خفاء ، ومن لعب وعبث أيضا إذ تصبح الألفاظ والكلمات كالأشراك ، لاتصيد طيرا ، وإنما تصيد أناسا ، وهم يمرون فى طريقهم وحياتهم العامة تحت أعين الناس ، إذ ماتلبث شباك الشعراء المنصوبة دائما أن تعلق بهم ، فإذا هم ضحكة الجماهير

الشاعر الجزار

من أهم الشعراء الذين اشتهروا حينئذ بهذه اللعبة اللفظية

شاعر كان يحترف الجزارة ، ومن أجل ذلك عرف باسم الجزار . وكانت روحه خفيفة ، واستغلها لافى التوريةفحسب ، بل أيضا فى فكاهة من طراز آخر ، إذ نراه يستخرج الضحك منا على منزله وملابسه ومطاعمه وكل مايتصل به ، فمن ذلك قوله يصف داره :

ودارٍ خرابٍ بها قد نزلتُ ولكنْ نزلتُ إلى السابعهْ
فلا فرق مابين أنى أكون بها أو أكون على القارعهْ
تساورها هفواتُ النسيم فتصغى بلا أذنٍ سامعه
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجدَ حيطانُها الراكعه
إذا ماقرأتُ (إذا زُلْزِلَتْ) خشيت بأن تقرأ (الواقعه)

وكان يكثر من إضحاك الناس على حياته ومعيشته ، فلم يكن يبالى أن يصف داره هذا الوصف المضحك . ومن دعاباته مع أبيه ، وكان قد تزوج فى شيخوخته من امرأة مسنة :

تزوَّج الشيخُ أبى شيخةً ليس لها عقلٌ ولا ذِهْنُ
لو برزتْ صورتها فى الدُّجَى ما جَسرَتْ تبصرها الجِنُّ
كأنها فى فَرْشها رِمَّةٌ وشَعرها من حولها قُطْنُ
وقائلٍ قال فما سِنُّها فقلت ما فى فمها سِنُّ

وتدل هذه الصورة الساخرة التى أخرج فيها زوج أبيه أنه كان يميل إلى التهريج ، ومع ذلك فقد كان لاذعا فى كثير من تهكماته وسخرياته كقوله فى بخيل :

لايستطيع يرى رغيفًا عنده فى البيت يُكْسَرْ
فلو انه صلى - وحاشاه - لقال الخُبْزُ أكبر

الأزجال الفكهة

وشاعت فى هذا العصر الأزجال، وأصبحت معرضا من معارض الفكاهة وما تتضمنه من هزل. وكانت أقرب إلى نفوس العامة، فهى بلغتهم الدارجة، لغة حياتهم اليومية. ومن أطرف الأزجال التى وصلتنا عن عصر المماليك زجل رثى فيه بعض الزجالين الفيل «مرزوق» الذى أهداه تيمور لنك إلى سلطان مصر، وفيه يقول على لسان زوجته:

وقالت الفيله امراتو مَنْ لى مُعينْ
سهم الفراق قد صاب قلبى يا مسلمين
ونا غريبه هنديّه قلبى حزين
وكان هذا الفيل زوجى لا مَعْيَره
واليوم كان آخر عمرو فى القنطرهْ
وعيّطت حتى أبكت جيرانها
من كتر ما ناحت ناحوا لأحزانها
من نارها صارت تلطم بِوْدانها
حتى الزرافة جاءتها متحسره
تبكى على الفيل اللى مات فى القنطرهْ

وما من ريب فى أن هذا الزجال كانت لديه روح فكهة خفيفة كما كانت لديه لفتات ذهن بديعة ، وقد ظهرت هذه اللفتات فى تصويره لزوج الفيل الهندية ، وما كان من لطمها « بودانها » أو آذانها كما ظهرت فى استغلاله لما عرف من صمت الزرافة وما يبدو عليها من تأمل وحزن ، كأنما أفلت منها شيء ، ولذلك جاء بها هنا لتساعد الفيلة فى بكائها .

واكبر زجال هزلى فى هذا العصر هو ابن سودون صاحب « نزهة النفوس ومضحك العبوس » ولكن قبل أن نتحدث عنه وعن كتابه لابد أن نقف عند المسرح الهزلى المعروف بخيال الظل ، ونذكر كلمة عنه وعن مسرحية طريفة أخرجها عليه ابن دانيال ، وهى أبدع ما أنتج هذا المسرح من فكاهة فى العصور الوسطى .

خيال الظل - طيف الخيال

خيال الظل هو المسرح الشعبى القديم الذى تحول فيما بعد إلى « الأراجوز » وقد عرفته مصر والشعوب الإسلامية منذ القرن السادس للهجرة ، إذ تسرب إليها من الصين على ما يظن . ونحن لا نصل إلى عصر المماليك فى القرن السابع للهجرة حتى نجد شاعرا يعرف بابن دانيال يخصص حياته أو يكاد للعمل على الارتفاع بهذا المسرح . وقد ألف له ثلاث مسرحيات هى مسرحية طيف الخيال ، ومسرحية عجيب وغريب ، ثم مسرحية متيم . وكلها

ألفها فى عهد الظاهر بيبرس، وتصور الأولى تصويرا هزليا الحياة الاجتماعية والثقافية بمصر أثناء عصرها، أما الثانية فتصور سوقا مصرية يدخلها واحد بعد واحد، ويتحدث كل منهم بدوره، فنضحك لأن ابن دانيال يمثل على لسان كل منهم لهجة الجالية التى ينتسب إليها والتى نزلت مصر حديثا، أو يمثل على لسانه حرفته التى يحترفها، وكأنما جمدت ألسنتهم جميعا عند صور معينة من الكلام. وأما الثالثة فخاصة بالحب وحيل المحبين، وفيها صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش.

ومسرحية طيف الخيال هى أبدع المسرحيات الثلاث، بل هى أبدع مسرحية فى تاريخ خيال الظل المصرى، ونرى ابن دانيال يستهلها بقوله:

«كتبتَ إلى أيها الأستاذ البديع، والماجن الخليع، لازال سترك رفيعا، وحجابك منيعا، تذكر أن خيال الظل قد مجّته الأسماع، ونبت عنه لتكراره الطباع، وسألتنى أن أصنف لك من هذا النمط. فصدنى الحياء فيما رمته منى، أن ترويه عنى، ولكنى رأيت تمنعى عن هذا المرام، يوهمك أنى قاصر عن هذا الاهتمام، واهن الفكرة، عاجز الفطرة، عن غزارة الينبوع، وإجابة الخاطر المطبوع، فجلت فى ميدان خلاعتى، وأجبت سؤالك لساعتى، وصنفت لك من بابات المجون، والأدب العالى لا الدون، ما إذا رسمت شخوصه، وبوبت منصوصه، وخلوت بالجمع، وجلوت الستارة بالشمع، رأيته بديع

المثال، يفوق بالحقيقة ذاك الخيال، فإذا دُعيت إلى مجلس السرور، فأخرجْ طيف الخيال، واستبد بالنشيد، وغنِّ فى الدست (ضرب من النغم) هذا القصيد :

خيالنا هذا لأهل الرُّتَبْ والفضل والبذل وأهل الأدبْ
حوى فنون الهزل والجد فى أحسن سِمْطٍ وأتى بالعجب
فانظره يامن فهمه ثاقبٌ ففيه للعرفان أدنى سبب
إذ قام فيه ناطقٌ واحد عن كل شخص ناظر واحتجب
مـذاهب الفضل بـه جمّة فنقّـطوه سادتى بـالـذهب
ترجَـمْته طيفَ الخيال الذى حكى هلالا طالعا بالحدَبْ

فإذا فرغ الريِّس من هذا الإنشاد، شرع فيها بنى وشاد، ثم ينادى : ياطيف الخيال! يا كامل الاعتدال! فيخرج شخص أحدب، وينقضّ كالبازى الأشهب، فيسلم سلام القادم، ويقف مطرقا كالواجم، فيرد الريس عليه السلام، ويتلقاه بهذا المديح قبل الكلام :

قسما بحسن قوامك الفتّانِ يا أوحد الأمراء فى الحُذبانِ
يامُشْبه الغصن الرطيب إذا انثنى من حَدْبتيه يميسُ بالرمان
يا مخجلا شكل الهلال بقدِّه حاشاك أن تُعْزَى إلى نقصان
ماعاب قامتَك الحسودُ جهالةً الا أجبتَ مقالـه ببيـان
هلا يزين المتنَ إلا رِدْفُه حُسْنا فكيف بمن له رِدْفان

ولنعم أسْنمة الجِمال وحملها ذات الجَمال لملتقى الأظعان
والعودأحْدب وهْوأهلى مطربٍ ولقد سمعتَ بنغمة العيدان

ويرد طيف الخيال. لا فضّ الله فاك، ولا أقال من سيف الحِسْبة قفاك، ثم يرقص على عادة الخيال، ويغنى بيوت الأزجال:

سلامٌ على السادة الحاضرين سلام المشوق الكئيب الحزين
سلام على من حوى ذا المقام
من السادة الأتقياء الكرام
فهم خيرُ من خوطبوا بالسلام وأكرم من صوفحوا باليمين
ومن قبل رقصى بهذا الخيال
ومن قبل أن أبتدى بالمقال
أعظِّم ربَّ العلا ذا الجلال إلهٌ تعالى على العالمين
ومن بعد هذا أصلى على
النبىِّ الذى جاءنا بالهدى
نبىّ كريم هدانا إلى صِراطِ هدى فى البَرايا مبين
وندعو لسلطاننا بالبقا
وبالنصرٍ والفتح والإرتقا
فلولاه مازال عنا الشّقا فذاك المطاع القوىُّ الأمين
وأسأل رب العباد الغفور
يديم لنا هؤلاء الحضور
ويبقيهمُ أبدا فى سرور فقولوا معى يارفاقىَ آمين

ويقول : «السلام عليكم أيها السادة ، ودمتم فى نعمة وسعادة . اعلموا أن لكل شخص مثالا ، وقد قيل فى الأمثال إنه يوجد فى الأسقاط[1] مالا يوجد فى الأسفاط . على أن لكل أسلوب طريقة ، وتحت كل خيال حقيقة ، وفى الهزل راحات من كلال الجد ، والنحس نظير السعد ، وقد يُمَلّ المليح ، ويُحَبّ القبيح . وفى القهوة[2] سلوة الأحزان ، لولا خفة الميزان ، ومطاوعة الشيطان ،وعصيان السلطان ، وحدُّه الحدود . وإننى من حين توبتى من هذه الخصال ، وتوديعى لأخى وصال ، ورجوعى من الموصل الحدباء[3] إلى الديار المصرية فى الدولة الظاهرية ، سقى الله عهدها ، وأعذب فى الجنان وِرْدها ، وجدت تلك الرسوم دارسة ومواطن أنسها غير آنسة ، عافية الآثار ، ساقطة الجدّ بالعِثار ، وقد هزم أمر السلطان ، جيش الشيطانِ ، فانكفت ألسنة البواطى ، وتابت البغايا والخواطى ، وتأذى الخُلّاع غاية الأذية ، وصُلب نبّاذ[4] فى عنقه نباذية ، وقال من قال :

لقد كان حَدُّ السكر من قبل صَلْبِهِ ... خفيفَ الأذى إذ كان فى شَرْعنا جَلْدا

فلما بَدا المصلوبُ قلت لصاحبى ... ألا تُبْ فإن الحدَّ قد جاوز الحدَّا

---

(١) الأسقاط : الساقطون من الرجال ، والأسفاط : الحقائب والأوعية .

(٢) القهوة يريد بها الخمر .

(٣) جعلها حدباء لأن طيف الخيال منها وهو أحدب .

(٤) النباذ : بائع النبيذ .

«وشاعت الأخبار، وقوى الإنكار، وانكسر الخمَّار، وانطحن المزَّار[1]. فدعانى بعض الأخلاء إلى محله، وأنزلنى بين قومه وأهله، واعتذر إلىَّ لتقصيره فى إكرامى، ولاختصاره فى الضيافة إذ لم يأت بمرامى، وقال: قد غلب على ظنى أن أبا مرة[2] قد مات، وعُدَّ من جملة الرفات (الحطام)، فقم بنا نبكيه، ونصف الحالة هذه ونرثيه، فابتديت وقلنا بيتا ببيت:

مات - ياقومُ - شيخُنا إبليسُ
وخلا منه رَبْعه المأنوسُ

وهْو لو لم يكن كما قلت مَيْتا
لم يغيِّر لحكمه ناموس

أين عيناه تنظر الخمر إذ عُطِّـ
ـل منها الراووق والقدريس[3]

والبواطى[4] بها تكسَّرْن والخمَّـ
ـارُ من بعد كَسْرها محبوس

وذوو القَصْف ذاهلون وقد كا
دت على سَيْلها تسيل النفوس

---

(١) المزار بائع المزر : نبيذ الذرة.

(٢) أبو مرة كناية عن إبليس.

(٣) الراووق : المصفاة، والقدريس : إناء للخمر على ما يظهر.

(٤) البواطى : آنية الخمر الزجاجية.

كم خليعٍ يقول ذا اليومُ يومٌ
مثل ما قيل قَمْطَرِيرٌ عَبوسُ
وفتى قائلٍ لقد هان عندى
بعد هذا فى شربها التَّجْريس
أين عيناه تنظر المِزْر قد أو
حش منه الماجورُ والقادوس
والقَنانى مكسَّراتٌ كما قد
كُسرت فى دجى الليالى الكئوسُ
وترى زنكلون[1] يَزْعق : زيتو
ن وناتو يصيح : يا جاموس
أين سُكُرْكتى[2] وطاجنةُ الفا
ر وأين المِزْراق والدبُّوس
نهبوهن والطراطيرَ والطا
رَ وضاعت خريطتى[4] والفلوس
أين عيناه والحشائش تُحْرَقْـ
ـن بنارٍ تُراع منها المجوس

---

(١) التجريس : التنديد والتشهير.
(٢) هذه أسماء الخمارين.
(٣) السكركة : نبيذ الذرة المسكر.
(٤) الخريطة : حافظة النقود.

وقضيبٌ ونرجسٌ وسعادٌ
باكياتٌ ونزهةٌ وعروس
ذي تنادي حَريفها[1] لا وداعٌ
لا عناقٌ لا ضمٌّ لا تبويس»

ثم يقول: «والله قد سطا علينا الزمان وصال، وفرق بيني وبين أخي وصال، وما قصدت هذه الديار إلا في طلبه، ولا تغربتُ عن أوطاني إلا بسببه» فيقول طيف الخيال: «يا أمير وصال! يا كامل الخصال» فيخرج جندى بشربوش، وشنبه منفوش، ويتبادل مع أخيه التحية والكلام نثرا وشعرا ويزجانه بمجون وفحش. وعلى هذا النحو تدور المسرحية أو قل بعبارة أدق الملهاة بين الأحدب القصير وبين أخيه الأمير وصال، وقد استخدم فيها ابن دانيال السجع، ولم يلتزم العربية، فنطق بكثير من عامية مصر، ولم يتمسك بصرف ولا نحو. وهذا طبيعي لأنه بصدد ملهاة شعبية.

ولعل من الطريف أن هذه الصورة التي يستهل بها ابن دانيال الملهاة صورة حقيقية من حيث التاريخ الخالص، فهو أصله من الموصل، ونزل مصر لعهد الظاهر بيبرس، فوجده قد أبطل تعاطي «الحشيش» والمسكرات، وأمر بإحراقها وتخريب بيوتها، وأراق ما فيها من نبيذ وخمر. واستغل ذلك ابن دانيال في أول مسرحيته، فأذاعه في هذه الصورة الهازلة، يريد أن يسلي الناس ويمتعهم.

---

(١) الحريف: الزبون.

وغضى فى الملهاة فإذا الأمير وصال يطلب كاتبه التاج بابوج، ويحدثه فى توقيعات وودائع وفى حسابات الأراضى والأملاك، ويقرأ عليه منشورا طويلا أمره بكتابته، كما يقرأ تقليدا بولاية وينشد قصيدة طويلة بين يدى مولاه. ويتماجن الكاتب، ويهزأ بطيف الخيال وقصره وحدبته، فيلقبه انتقاما منه بصُرًّ بَعرْ فى مقابل شاعر قديم كان يسمى صُرَّدُرّ.

وأخيرا يقول الأمير وصال لأخيه طيف الخيال: «قد عزمت على ترك مسالك الخلاعة، والتوبة المخلصة لله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة، فقد دنا الرحيل، وما بقى إلا القليل، فاطلب لى أم رشيد الخاطبة، وأن كانت كالتى تخرج بالليل حاطبة، لأنها تعرف كل مليحة بمصر والقاهرة» فينادى طيف الخيال: «يا أم رشيد! يا ست العبيد»، فتخرج العجوز، وتقول: «مُسِّيتم بالسعادة، ولا زلتم فى نعمة وسيادة، وفى خير والخير عادة! يا أولادى لا بليتم بالكبر، وثقل الجسم والسمع والبصر. من هذا الذى طلبنى فى الليل الدامس، والدروب مغلقة والطرف ناعس، وأزعجنى من رقدتى والنجوم راكدة، وكل صبية مع عشيقها راقدة». فيقول لها طيف الخيال: «طلبك الأمير وصال». ويدور بينها وبين الأمير وصال حوار يكشف لها فيه عن مرامه، فتهديه إلى فتاة ذكرتها بالخير وتصف له حسنها وجمالها. ويشكرها ويحضر ولى أمرها والشاهد، ويقول الشيخ الذى يعقد القران:

« الحمد لله ستار العيوب ! وعالم الغيوب ! والمؤلف بين القلوب ، وأشهد أن لا إله الله غافر الذنوب ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الصادق المصطفى المحبوب ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة الوجوب ، هادى الأمة ، وكاشف الغمة » . ويترك الشيخ هذا الجدَّ فيتحدث هازلا عن الأولاد ، والزوجة الصالحة قائلا : « والزوجة المباركة هى الحافظة للعيال ، الجامعة للمال ، والمعدة لحسن المآل » ، ثم يقول : « وهذا الأمير وصال ، مشكور الخصال قد عزم على الاتصال ، بالست المصونة ، والدرة المكنونة على ما أصدقها به فى هذا الزواج وهو مائة معجَّلة ، وأربعة وأربعون مؤجلة » ويقول له قل قبلت ، فيجيبه : قبلت ولبئس ما عملت . وعندها تطلق أم رشيد البخور ، وترش الماورد على الحضور . فيقول الأمير وصال : لابد من تدبير الحال ، وتجهيز المال . على أنى الليلة أفلس من طنبور ، وينشد :

أمسيتُ أفقرَ من يروح ويَغْتدى
مافى يدى من فاقتى إلا يدى
فى منزلٍ لم يَحْوِ غيرى قاعدا
فإذا رقدتُ رقدت غير ممدَّد
لم يبق فيه سوى رسوم حَصيرةٍ
ومخدَّةٍ كانت لأم المهتدى[1]

---

(١) يريد أنها بالية عتيقة فهى من العصر العباسى كانت لأم الخليفة المهتدى .

مُلْقىً على طرَّاحةٍ فى حَشْوها
قملٌ شبيه السِّمْسم المتبدِّد
والبقُّ أمثالُ الصراصر خِلْقَةً
من مُتْهمٍ فى حَشْوها أو مُنْجدِ
يجعلن جسمى وارمًا فتخاله
من قَرْصهن به ندوبُ المجلد
وترى براغيثًا بجسمى عُلِّقت
مثل المحاجم فى المساء وفى الغد
وترى البعوض يطير وهْو بريشةٍ
فإذا تمكن فوق عرقٍ يَفْصِد
والفارَ يركض كالخيول تسابقتْ
من كلِّ جرداء الأديمِ وأجرد
يأكلنَ أخشاب السقوف شبيهةً
فارات نجَّارٍ جُذِذْن بمبرد
وترى الخنافسَ كالزنوج تصفَّفت
من كل سوداء الأديم وأسود
دُهْمٌ إذا طُردتْ أرتْك لجاجة
فى عَدْوها والويلُ إن لم تطرد
ولربما اقترنتْ بصُفْر عقاربٍ
قتالةٍ مثل الحمام الركَّد

وتقيم لى عنـد المسـاء زُبـانَها[1]
فـأراه وهْـو كـإصبـع المتشهِّـد
وكـأنما الـزُّنْبـورُ أُلبس خلعـةً
مـوشيَّةً أعـلامُهـا بـالعَسْـجدِ
متـرنِّم بـين الـذبـاب مغـرِّدٌ
لا كـان من متـرنِّم ومغـرِّد
وإذا رأى الخفـاشُ ضـوءَ ذبـالةٍ
عندى أضرُّ[2] بضوئها المتوقِّد
حشـراتُ بيتٍ لو تلقَّتْ عسكرا
ولَّى علىٍ الأعقاب غير مردَّد[3]
هـذا ولى ثـوبٌ تـراه مرقَّعـا
من كل لونٍ مثل ريش الهُدْهُدِ
لـولا الشقـاوة مـا وُلـدت فليتنى
إذ كـان حـظِّى هكـذا لم أولـد
ولـكيـف أرضى بـالحـيـاة وهمَّتى
تسمو وحـظِّى فى الحضيض الأوهد

---

(١) زبانها : قرنها.
(٢) أضر : كف بصره.
(٣) مردد : متردد حائر.

ويجيب على ذلك طيف الخيال بقوله: «يا أمير وصال! عهدتك ذا مال وجمال، وخيل وبغال» فيرد الأمير وصال: «مال المال، وحال الحال، وذهب الذهب، وسُلب السلب، وفُضَّت الفضة، وقعدت النهضة، وفرَّغت الكاس، بطون الأكياس». ثم يقول: إننى ما أقدمت على زواجى، إلا بعد ضرورتى واحتياجى، وينشد قصيدة طويلة فى مجونياته القديمة. وأثناء ذلك تدخل أم رشيد وتأمره أن يستعد للزفاف على عروسه، وأن يكترى أو يستأجر عشرين شمعة، ويحضر المغنية والماشطة، وتقول إنها أحضرت له أم شهاب الدمشقية. يقول ابن دانيال:

«ويدخل الأمير وصال ويخرج فى زفة، وقدامه المغانى والشموع منصفةً، ومن خلفه البوقات والطبول، وهو راكب على فرس من أحسن الخيول، ثم يترجل بأدب وناموس، ويبرز لِلجلا والمواشط بالعروس، وتُجْلى عليه بالخلعة والشربوش، وتخطر مستورة الوجه بمنديل مذهب منقوش، فإذا كُشف عن وجهها الخِمار، شهقت شهيق الحمار. وإذا هى من أكبر الدواهى بأنف كالجبل، ومشافر كمشافر الجمل، ولون كلون الجُعَل[1]، وأجفان مكحولة بالعمش، وخدود مضرجة بالنمش، والعين غين، والزين شَيْن».

وحينما رآها الأمير وصال خرَّ صريعا من الاختلال. ثم يشب وثبة

---

(١) الجعل: ضرب من الخنافس.

الأسد إذا غضب وصال، ويضرب المواشط والعروس، ويتفرقون وهم خائفون. ويخرج طيف الخيال، فيقول له الأمير وصال: أرأيت ما صنعته بي أم رشيد، فأحضرْها وزوجها الشيخ عفلق. ويحضر زوجها، ويشكو من كبر سنه، وينشده بعض أشعار له يبكي فيها شبابه وقوته واحتماله وما كان من مجونه القديم. وينتصر له الشاعر صُرَّبَعْر، وينشد على لسانه هذه الشكوى من زوجته:

أنـــا أشكـــو من زوجـــةٍ صَـيَّـــرتْني
غـــائـبـــا بـــين ســـائـــر الحُـضَّـــارِ
غـيَّـبـتْـني عـــنى بمـــا أطـعـــمـتْـنى
فـــأنـا الـــدهـرَ مفكـــرٌ فى انتـــظار
غـبـت حـتى لـــو أنهم صـفـعـونى
قلت كفُّوا بالله عن صَفْـع جـارى
دارَ رأسى عن بـــاب دارى فبالـلـ
ـه اخبـرونى يـا سـادتى أين دارى
غـفـــر الله لى بمـــا رُحْـت لـلبحـ
ـر من البـرد أصْطلى بـــالـنـــار
وتجـــردتُ لـــلسـبـــاحـــة فى الآ
ل[1] لـظنٍّ بـــه الـــزلالَ الجـــارى

---

(١) الآل: السراب.

ولكم قد رأيت في الزِّير شَيْخا
وهو جاثٍ في الماء كالعيَّارِ
شيخ سوء كالثلج ذقنا ولكن
وجهه في سواده كالقار
لم يَغظنى منه سوى أنه عبٌّ
س مثلى وافترَّ مثل افتراري
فاعترانى رعبٌ وناديت ما كنـ
ـت أظن اللصوص في الأزيار
أين قوسى وأين درعى؟ الحقينى
أم عمرو بصارمى البتَّارِ
أن أمت كنت في الغُزاة شهيدا
أو أعش كنت أشطرَ الشطَّار
ثم أثخنتُ ذلك الزِّير ضربا
بحسامى حتى هوى لانكسار
وجرى الماء فاختشيت وإلا
كنت أَقْفُو الآثار في التَّيار
ولكم قد عصبتُ رجلى لرؤيا
أوطأتنى حُلْمًا على مسمار
ولكم رمت قلعَ ضرسٍ ضَروبٍ
بعد ما ضرَّ غايةَ الإضرار

فإذا بى قلعت بعد عنائى
واجتهادى القوىَّ من أوزارِى
ورحىً حُزْتها لطحنٍ فمازلـ
ـت ضلالا أدور حول المدار
وأنادى وقد سئمت من الرَّكْـ
ـض إلى أين منتهى مِضْمارى

ويستمر صُرَّبَعْرْ فى هذه الشكوى، أو قل فى هذا الهزل، الذى صور فيه نشوة خمرة يغيب فيها صاحبها عن حسه وشعوره تصويرا بديعا. وهو يختم هذه الشكوى بقوله:

أنا لو رمتُ للعلاجِ طبيبا
ما تعدَّيت دِكَّة البَيْطارِ
بعد ما كنت من ذكائىَ أدرى
أن بابى من صنعة النجار
أحْرِزُ البيضَ قبل أن يكسروه
أن فيه البياض فوق الصَّفار
وبعينى نظرتُ كوز نحاسٍ
كان عندى أقوىً من الفخَّار
وكثيرٌ منى على كُبْر سِنى
حفظُ هذى الأمور مثل الصَّغار

وينادى طيف الخيال زوج أم رشيد، ويقول له: «قد ظهرت عليك دلائل الكبر، ورأيت بالمشيب ما فيه للعين معتبر» فيقول: «أجل، وقد قرب الأجل»، ويظهر ضعفه وهرمه ومرضه، فيطلبون له طبيبا يسمى المعين بن سديد، فيقول كلا أنه الذى قضى على زوجتى أم رشيد، فيقول له الأمير وصال: «بالله هل ماتت؟» فيقول الزوج: «وفاتت»، وينشد شعرا ناح به عليها، وفيه يقول:

ساعدونى بالنَّوْح والتعديدِ
بعد فقد العجوز أمِّ رشيدِ
أىّ ستٍّ يا لهف نفسى عليها
هلكتْ آخر الليالى السُّود
فاندبيها يا أمَّ طوغانَ وابكى
فقدها إن فقدِها يومُ عيدى
أمَّ طوغان واندبيها وغنِّى:
يا ليالى الوصال بالله عودى

ويقول طيف الخيال: أستغفر الله العظيم من هذه الخصال، وأعوذ بعفو الغفار، من تحمل الأوزار، والعمل بعمل أهل النار، فالإنابة أجمل، ونحن نقول مالا نفعل. ويقول الأمير وصال: يا أخى طيف الخيال، ما بقى إلا الارتحال، وقد عزمت على الحجاز، وخرجت بالحقيقة إلى المجاز، وقصدت غسل هذه الآثام

بماء زمزم والمقام ، ونويت زيارة سيد الأنام ، صلى الله عليه وعلى آله الكرام . اجعلني نصب عينك ، وهذا فراق بيني وبينك . ويُسْدل الستار .

وهذه الملهاة تعد طرفة نفيسة من حيث البناء التمثيلى الذى أعطينا القارىء فكرة مختصرة عنه ، فالحوادث والشخوص واضحة ، وهناك تفاصيل كثيرة تتداخل فيها لم نحصها إحصاء ، لأن ذلك يخرج بنا من جهة عن هذا العرض السريع ، ولأنها من جهة ثانية تتعمق فى العبث والمجون . وهذا نفسه ما أراده ابن دانيال .

ولم يترك شارة من هيئات الشخوص ولا ثيابهم ولا سمة من دوافعهم وعواطفهم دون أن يكشفها كشفا تاما . وليس هناك أى اصطدام بين شخص وأقواله ، بل كل شىء يجرى فى منطق التمثيلية . وقد صورت البيئة التى عاش فيها الشخوص تصويرا بارعا ، حتى أحداثها السياسية ، فابن دانيال يدخل بعينه فى كل ما حوله ، ويبعثه ناطقا سواء من حيث علاقات الرجال والنساء فى عصره أو من حيث علاقات الحكام بالمحكومين .

ونشعر منذ أول المسرحية بأننا مسوقون إلى نهايتها فى تسلسل منطقى ، قلما يظهر فيه نشاز . وكل هذا يخدم غايات الكاتب المسرحية ، وهى غايات كلها فكاهية ، أراد بها إلى تسلية أهل القاهرة . وقد اتسع فى استغلال مجاميع من الأخطاء المضحكة ، واختار موضوعا موفقا لعرضها هو موضوع الخاطبة فى تلك

العصور، والدور الذى كانت تقوم به وما كان يحدث فيه من أغلاط فى فهم حقيقة الزوج وأيضا فى فهم حقيقة الزوجة المحجَّبة.

وإن اللوحة التى عرض فيها شكوى صُرَّبعّر من الزوجة لتظهر لوحة كاملة للاستغراق فى نشوة المسكرات، وهو ما يزال بها حتى يغمسها فى ألوان من فقدان الشعور والإحساس الخارجى، فيبدو الزوج فى هذه اللامعقولية المضحكة، أو قل فى هذا الذهول الذى لم يعد يرى فيه الأشياء على حقيقتها، فهى تنعكس دائما فى عينه على صور خيالية شتى، وكأننا إزاء شخص يحلم، فهو ليس فى وعيه، بل لكأننا إزاء شخص نُوِّم عقله، فأصبح يهذى هذا الهذيان المضحك.

وبذلك كان ابن دانيال الكحال بباب الفتوح طرفة عصره، وكان خفيف الظل، سريع النكتة، فنادم السلطان خليل بن قلاوون، ونادم الوزراء والأمراء، فكان قرة أعينهم وفرحة أنفسهم، هذا البوق الفكه الذى ظل ينفخ فيه حتى آخر حياته.

نزهة النفوس ومضحك العبوس

هذا عنوان ديوان أُلفَّ فى العصر المملوكى أيضا، ألفه ابن سودون، وكان يعيش فى القرن التاسع للهجرة، وكان إماما ببعض المساجد، إلا أنه اتخذ الهزل منهجا له فى حياته، فطار اسمه، وتنافس الظرفاء فى الحصول على شعره الذى يذهب جميعه مذهب الضحك والفكاهة.

وعُنى بجمع هذا الشعر فى الديوان، وأضاف إليه طائفة من الحكايات الفكهة. وأغلب الديوان من اللفظ العامى الشعبى، ومن يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغته ولغتنا المصرية الدارجة الحديثة. وربما كان فى ذلك بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ وأنها لا تتطور الا بقدر محدود، فكثير من أمثال هذا الديوان وألفاظه لا تزال جارية تحت آذاننا فى عصرنا الحاضر. والشىء الذى يلفت حقا فى هذا الديوان أنه أُلفَ كله فى ضروب من الهزل والفكاهة، ولسنا نعرف شخصا قبل ابن سودون كتب ديوانا من الشعر، جميعه هزل وفكاهة ودعابة، أو على الأقل لسنا نعرف فى مصر شاعرا قبله احتكره الهزل هذا الاحتكار.

والحق أن ابن سودون شخصية طريفة فى تاريخ أدبنا المصرى الشعبى، لأنه يفصح إفصاحا واضحا عن مزاج المصريين فى هذا الجانب الفكه الذى تشتهر به مصر فى عصورها المختلفة. ومن يقرأ ديوانه يلاحظ أنه كان يعتمد فى فكاهاته على المفارقة المنطقية، فهى المفتاح الذى ينصبّ منه نغم الهزل عنده، وكان يسلك إلى هذه المفارقة طريقة واضحة، هى أن يقف بين يديك موقفا جادا يريد أن يروى لك بعض العجائب ولكنه لا يبدأ فى ذكرها، حتى تحس تباينا ونبوا وشذوذا عن المنطق المألوف. وبذلك تسترسل فى الضحك، لا لسبب، إلا لأنك تشعر كأنك فقدت توازنك، فقد كنت على استعداد لكى تستمع إلى أشياء غريبة، فاذا بك تستمع إلى بدهيات

مسرفة فى البداهة . ومن هنا يأتى الضحك لأن الحقائق تصعد أمامنا وتهوى ، وكأنها تهوى من أمكنة عالية ، هى أمكنة المنطق والعقل الواعى ، فنضطرب معها ، ولا نلبث أن نضحك فى غير نظام ، بل فى فوضى كفوضى الكلام الذى نسمعه . واقرأ هذا الشعر :

عجبٌ عجبٌ هذا عجبُ ... بقَرا تمشى ولها ذنبُ
ولها فى بُزَيِّزها لبنٌ ... يبدو للناس إذا حلبوا
من أعجب مافى مصر يُرَى الـ ... ـكَرْمُ يرى فيه العِنب
والنَّخْل يرى فيه بلحٌ ... أيضا ويرى فيه رُطَبُ
« أوسيم » بها البرسيم كذا ... فى الجيزة قد زُرع القصب
والمركب مَعْ ما قد وسَقت ... فى البحر بحبلٍ تنسحب
والناقةُ لا منقارَ لها ... والوزَّة ليس لها قَتَبُ
لابد لهذا من سببٍ ... حَزْرٌ ، فَزْرٌ ، ماذا السبب

وواضح أنه يستهل القطعة بقوله « عجب ، عجب » ونتنبه ظانين أننا سنستمع إلى عجائب وإذا هو يورد علينا بدهيات فى صورة من التباله ، تجعلنا نحس عدوانا على منطقنا ، وخاصة حينما نصل إلى تعجبه من أن الناقة لا منقار لها والإوزة ليس لها قتب ، وكأنه يظن أن الناقة من الطير والإوزة من فصيلة الإبل . أرأيت إلى هذا التعاكس ، ومع ذلك فابن سودون يدهش لما يرى من هذه الغرائب ، ويتساءل متحيرا عن سبب ذلك ، ويقرن تساؤله بكلمة « حزر فزر »

التى تلوكها العامة عندنا فى الفوازير. وكل هذه ضروب من العدوان الصريح على منطقنا، وهذا هو سر ما تحمل من فكاهة، إذ تسقط العبارات والأفكار فى غير موضعها، وكأنها تسقط من شواهق على نحو ما نجد فى قوله:

إذا ما الفتى فى الناس بالعقلِ قد سَما
تيقَّن أن الأرضَ من فوقها السَّما
وأن السما من تحتها الأرضُ لم تزل
وبينهما أشياءُ إن ظهرتْ تُرَى
وكم عجبٍ عندى بمصرٍ وغيرها
فمصر بها نيلٌ على الطِّين قد جرى
وفى نيلها من نام بالليل بلَّه
وليستْ تبلُّ الشمسُ من نام فى الضُّحى
بها الفجرُ قبل الشمس يظهر دائما
بها الظهرُ قبل العصر قيل بلا مِرا
وفى الشام أقوامٌ إذا ما رأيتهم
ترى ظهرَ كلٍّ منهمُ وهْو من وَرا
بها البدرُ حالَ الغيم يخفى ضياؤه
بها الشمسُ حال الصَّحْو يبدو لها ضِيا
وتسخن فيها النارُ فى الصيف دائما
ويبرد فيها الماء فى زمن الشِّتا

وفى الصِّين صينىٌّ إذا ما طرَقْتَه
يطنُّ كصينىٍّ طرقت سَوًا سوا

بها يضحك الإنسانُ أوقات فَرْحِه
ويبكى زمانَ الحزن فيها إذا ابتلى

ومن قد رأى فى الهند شيئا بعينه
فذاك له فى الهند بالعين قد رأى

وفيها رجالٌ هم خلافُ نسائهم
لأنهمُ تبدو بأوجههم لِحَىَ

ومن قد مشى وَسْط النهار بطُرْقها
تراه بها وسط النهار وقد مشى

وعشاقُ إقليم الصَّعيد به رأوا
ثمارا كأثمار العراق لها نَوَى

به باسقاتُ النَّخْل وهْى حواملٌ
بأثمارها قالوا: يحرِّكها الهوى

وما علَّمتْنى ذاك أمِّى ولا أبى
ولا امرأةٌ قد زوَّجانى ولا حَما

وأنت ترى ابن سودون فى هذا الهزل كله يعتمد على فن المفارقة، فهو يبدأ حديثه بأن الانسان إذا سما عقله استطاع أن يصل إلى هذه المعارف الدقيقة، من مثل أن الأرض من فوقها السماء وأن السماء من تحتها الأرض وأن بين السماء والأرض أشياء

نشاهدها . وينتقل ابن سودون من هذه المقدمة إلى بيان الغرائب التى شاهدها فى البلدان المختلفة ، وهو يبدأ بمصر فيروى لك أن الفجر فيها يظهر قبل الشمس وأن الظهر يتقدم العصر ، ويؤكد لك ذلك كأنه شيء مشكوك فيه ، فيقول لك بل هو حقيقة بلا مراء . ويتحول بسامعه إلى عجائب الشام ، فيذكر أن بها أناسا ظهر كل منهم وراءه ، كأن الناس فى العالم على قسمين : قسم فى الشام إذا رأيته عجبت منه ، وهو لذلك يعرفنا به وبوجه العجب فيه ، أما القسم الآخر الذى يقابل هذا القسم ، فقد سكت عنه لأنك تعرفه حق المعرفة ، فهو شائع ومفهوم ، وهو إنما يقص لك المجهول الذى لا تعرفه . هذه قصة الناس هناك ، أما بدرهم فان ضياءه يستتر حال الغيم وانتشار السحاب ، وأما شمسهم فان ضياءها ينتشر حال الصحو . وهناك تسخن النار فى الصيف ويبرد الماء فى الشتاء . كأن ذلك كله من عجائب الشام . ويترك الشام إلى الصين فإذا هو يحدثنا أن بها « صينيا » يطن مثل ماذا ؟ بمثل صينى طرقت سواء سواء . هل جاء ابن سودون بشيء ؟ . ويستمر فى هزله ، فيقول ان الناس فى الصين يضحكون فى أوقات فرحهم ويبكون فى أوقات حزنهم .

وينتقل إلى الهند فيحدثنا أن من رأى هناك شيئا بعينه فقد رآه بعينه ، وهو لم يصنع هنا شيئا أكثر من أنه أعاد علينا فى الشطر الثانى من بيته ما قاله بعينه فى الشطر الأول . وأخذ يعرفنا أن الرجال هناك يختلفون عن النساء اختلافا بينا ، لما لهم من لحى

يرسلونها وكأن اللحى خاصة من خواص رجال الهند وحدهم دون سواهم من العالمين. ويقول أن من يمشي هناك وسط النهار تراه وسط النهار وقد مشى!

ويعود بنا إلى مصر، فيتكلم عن إقليم الصعيد وما شاهده فيه من عجائب الزمان، ويقول إن به ثمارا كأثمار أهل العراق لها نوى. أرأيت إلى هذا التنظير أو قل هذا القياس الدقيق. ولكنها معلومات ابن سودون، معلومات قد تعب فى تحصيلها، وقد تعلمها باجتهاده ورحلاته فى أقطار الأرض، وما تعلمها من أبيه ولا أمه ولا من زوجه وحماته، وانما تعلمها من مشاهداته ورحلاته وفطنته وذكائه.

وعلى هذا النحو يعتمد ابن سودون دائما فى فكاهته على الهزل والهذر وسرد البدهيات على شاكلة أدعياء المعرفة سردا يُلْغَى فيه المنطق المستقيم إلغاء، وينتكس كل ما نؤمن به من ميزة التفكير السليم انتكاسا، وهو انتكاس لا نلم به حتى يفضى بنا إلى الضحك والإمعان فيه.

وحقا أن ابن سودون كان « جحا » مصر فى عصره، ولم يكن يعتمد فى جحويته على النوادر والنكت كما كان يعتمد جحا، بل كان يعتمد على هذا الفن من الهزل، وما يطوى فيه من مفارقات ومتناقضات يدفعك بها دفعا إلى الضحك، وكأنك تستمع إلى مهرج

من مهرجي التمثيل الهزلى ، لايزال يطرفك بغبائه ، وبما يأتى من مخالفات صريحة لمنطق الواقع . وكان ما يزال يحتال بهذه المخالفات على كل موقف مهما بلغ من جد ، ومن خير ما يصور ذلك قوله فى رثاء أمه :

لمـوت أمِّـى أرى الأحـزان تَحْنِينى
فـطالمـا لحـستْـنى لحسَ تَحْنـينِ
وطـالمـا دلَّـعتْـنى حـالَ تـربيـتى
خـوفا عـلى خـاطرى كى لا تبكِّينى
أقول « مَمْ مَمْ » تجى بالأكل تطعمنى
أقـول « أمبـو » تجى بـالمـاء تسقينى
إن صحت فى ليلةٍ « وَأْ وأ » لأسهرها
تقـول « هُو هـو » بهـز كى تُنَـنِّينى
كم كحَّلتنْى ولى فى جـبهـتى جعلتْ
« صـوصو بنيـلى » وكم كانت تحنِّينى
وربمـا شَكْشـكتْـنى حـين أغضبهـا
وبعــد ذا كَشْكشتْنى كـى تُـرَضِّينى
ومن فقـيهـىَ إن أهــرُبْ ورام أبى
مسكى وبعـثى لـه كـانـت تخبِّينى
وزغرطتْ فى طهورى فـرحةً وغـدتْ
تنــثُرُ الملح مـن فــوقى وتَـرْقـينى

وفى زواجى تصدَّتْ للجِلاء عسى
علـى المنصَّة تلقانى بتزيين

وربت أولادا ايضا مثل تربيتى
وبعد ذلك ماتت آه وانينى

وخلَّفتْنى يتيما ابن أربعةٍ
وأربعين سنينًا فى حِسابينى

يعظِّم اللهُ فيها الأجرَ لى وكذا
لى فىٍّ من بعدها جودوا بآمين

وما من شك فى أن كل من يستمع إلى هذا الرثاء يغرق فى الضحك لأن ابن سودون اعتدى على الموقف التقليدى فى مثل هذا الظرف اعتداء صارخا ، وأى عدوان أبعد من هذا العدوان الذى نجد فيه شخصا يقف بإزاء أمه - وقد لبت نداء ربها - ليرثيها ، ومن الواجب أن تكون كل كلمة فى رثائه تعبر عن دمعة تنحدر من عينه ، فإذا هو يترك ذلك وما يتصل به من حشمة ووقار إلى مظهر جديد لم نره عند أحد من قبله ، وهو مظهر لايتصل بالحزن ولا بالرثاء ، وإنما يتصل بالدعابة والهزل ، وكأنما يتحدث إلى أمه فى أحد أعياد ميلادها ، وهى قائمة بين يديه تستمع إلى هزله ، فتضحك وقد تسترسل فى الضحك لأنه بعد أن بلغ أربعا وأربعين سنة يحدثها عن ذكرياتها القديمة .

وهذه المخالفة فى الموقف وما تنطوى عليه من مفارقة هى أساس فكاهة ابن سودون فى هذه المقطوعة ، وارجع إلى مطلعها فإنك تراه فى الشطر الأول منها يكاد ينهد من حزنه انهدادا ، فقد قوسه الحادث وحناه ، ولكنك لا تقرأ الشطر الثانى حتى تجد المفارقة ، فإذا هو يذكر كيف كانت أمه فى رضاعته « تلحسه لحس تحنين » كما يذكر كيف كانت تدلعه خوفا على خاطره . ونستمر ، فإذا هو يحكى لغة الأطفال ذاكراً أنه كان حين يقول « مم مم » تأتى له بالأكل وحين كان يقول « أمبو » تأتى له بالماء .أرأيت صرامة الموقف وما يمليه على ابن سودون ؟ انه لايملى عليه إلا هذه الفكاهة ومايطوى فيها من ضحك فى موطن الرثاء وما يطوى فيه من حزن .

ولايكتفى ابن سودون بذلك إذ نراه يعمد إلى محاكاة بكاء الأطفال وما يقترن بهذا البكاء من هز أمهاتهم لهم وقولهن « هو ، هو » ، ونحو ذلك حتى يناموا . ثم يسترسل فى الحديث عن حنو أمه عليه ، وكيف كانت تكحله وكيف كانت « تحنيه » ثم كيف كانت « تشكشكه » بإبرة ونحوها وكيف كانت « تكشكشه » وتُدَلِّله بهزٍّ وغير هز .

ويقص علينا كيف كانت تخبئه حين يهرب من فقيه الكتاب وأنها زغرطت يوم ختانه ، وزينته يوم زواجه . وأخيرا يعلن أنها خلفته يتيما ابن أربع وأربعين سنة كما يقول . وكل هذه مفارقات تنتهى بنا إلى الضحك ولكن فى أى موقف ؟ فى الرثاء أو بعبارة أخرى فى أكثر

المواقف دعوة إلى الحزن وأشدها استثارة للبكاء . وهو بذلك يجرح شعورنا لما اصطلحنا عليه فى مثل هذا الموقف لكنه جرح ينتهى بنا إلى أن نضحك ، بل إلى أن نسرف فى الضحك ، لأنه جاء على غير أهبة وبدون انتظار ، وهو يغلو فى ذلك غلو البله . وهذا هو وجه طرافته وجمال فكاهته التى تعتمد دائما على المباينات بين ماتنتظره من مقدماته وما يستقبلك به من أشعاره . ومن أطرف ماجاء من ذلك وصفه لحفل زواجه ، إذ يقول :

حلَّ السرور بهذا العقد مبتدرا
ونجمُ طالعه بالسَّعْد قد ظهرا
و « الفلُّ » كلَّل وَجْه الأرض فانعطفتْ
أغصانه بالتهانى تَنْثر الزهرا
والطيرُ من فَرْحها فى دَوْحها صدحتْ
بكل عودٍ عليه لا ترى وتَرا
تقول فى صَدْحها : دام الهنا أبدا
على العرائس كى يقضوا به الوطَرا
وكنت عند زفافى قد وصلتُ إلى
حدِّ الأَشُدِّ ، وعقلى فى الورَى اشتهرا
فكنت أعرف من عقلى وكثرته
أنى إذا نمت مَعْ ظهرى يكون وَرا

هذا وعقلُ عروسي كان أصغرَ من
عقلي ولكن حوتْ في عمرها كِبَرا
في السنِّ قد طَعنتْ ، ماضَرَّ لو طُعِنَتْ
بالسنِّ من رمحٍ أو سيفٍ إذا بَتَرا
في وجهها نمشٌ في أذْنها طَرَشٌ
في عينها عمشٌ للجفن قد سترا
في بطنها بَعَجٌ في رِجلها عرجٌ
في كفِّها فَلَجٌ ، ما ضرَّ لو كُسرا
في ظهرها حدَبٌ في قلبها كدر
في عمرها نُوَبٌ كم قد رأت عِبرا
يا حُسْن قامتها العوجا إذا خطرتْ
يوما وقد سَبْسبتْ في جِيدها شعرا
تظل تهتف بي : حَسْنا حظيتَ بها
أوَّاه لو حاسها موتٌ لها قبَرا

وأنت تراه يعمد في هذه القطعة إلى المفارقة حتى يستخرج مايريد من هزل وفكاهة . فقد بدأ شعره بالسرور وطالع السعد وما كان من مشاركة الطبيعة والطير للعروسين في فرحها . وما نستمر حتى نراه يعمد إلى التباله ، بل إنه ليعلنه اعلانا ، فعقله على كثرته لم يكن يعرف به إلا أنه إذا نام كان ظهره إلى ورائه . ومع ذلك فعقله أكمل من عقل زوجته .

وذهب بعد ذلك يعرض علينا زوجه فى صورة مشوهة لاتنسجم مع مطلع شعره . وهذا هو معنى مانقوله من أنه يعمد إلى ضروب من المباينات المنطقية فى هزله ، فبينما هو فى مستهل القطعة يملأ الجو بشرا وابتساما لهذا الزواج السعيد إذا هو يملأه بعد ذلك كآبة وغيما واكفهرارا ، لما صدم شعورنا به من وصفه لهذه الزوج القبيحة التى جمعت فنون القبح كلها . وهو يعمد إلى المبالغة فى هذه الفنون ، حتى يستتم مايريد من إضحاك . ونراه يقف ليعجب بقامتها على ما فيها من عوج ويذكر عيوبها من غمش وطرش وعمش وبعج وعرج وفلج (تباعد ما بين الأصابع) وحدب . والمفارقة واضحة فى القطعة ، وابن سودون يدمج فى هذه المفارقة وما يطوى فيها من تباين ضروبا من التباله واظهار الغفلة على نحو ما نجد فى قوله :

البحر بحرٌ والنخيل نخيلُ
والفيل فيلٌ والزَّرافُ طويلُ
والأرض أرضٌ والسماءُ خلافها
والطيرُ فيما بينهن يجولُ

وإذا تعاصفت الرياحُ بروضةٍ
فالأرض تثبتُ والغصون تميل

والماء يمشى فوق رملٍ قاعدٍ
ويُرَى له مهما مشى سَيْلول

وهو لا يأتى بشىء غريب ومع ذلك فإن شيئا من الابتسام يلم بنا ، لأن ابن سودون جمع لنا فى هذه القطعة أقرب الأشياء من حِسِّنا ، وذهب يرويه فى هذا الضرب من البله والسذاجة ، وهى سذاجة هيأته لأن يصف كل مايتصل به ، حتى لغة الأطفال كما مر بنا ، وعلى شاكلة مانجد فى قوله :

ولما أن كبرتُ بحمدِ ربى
وصار لمنتهى عقلى ابتداءُ
بقيت أقول : ننوّ تُتْ و ثاته
ودحوّ كُخّ وأمبو مَمٌّ آء

فقد حشد فى البيت الثانى طائفة من لغة الأطفال ، وله فى هذا الباب طرف كثيرة . وقد حكى فى ديوانه ضروبا من أصوات الحيوان ، إذ نراه يقلد صوت الديكة والحملان والثيران ، ومن هزلياته قوله فى كتكوت :

شِريتْ لى كُتَيْكيتْ فُميمو بزِيق
عريِّين يصيح من البرد : زِيق
لو حُلَيق فيه زماره وحُنيك فيه نقّاره
يزمّر ، ينقّر ضويحك رشيق
أقول لو كتكت يكتكت ، يجى

يـرفـرف يـزقـزق لحسّـو زعـيـق
لـو جناح لاح من جنبـو كلما آنشرح لولح بو
غـليـظ البُـطيـنـه ولْـو سـاق رقيـق

وهى قطعة خفيفة توضح مقدرة ابن سودون على جمع الصفات والخصال لكل مايصفه ويعالجه . وقد تعلق بجانب ذلك بوصف الأطعمة والتحدث عنها تحدثا يشوبه الجشع ، بل تشوبه « الفجعة » . وله بعد ذلك مواليات أو قطع من فن المواليا الذى كان شائعا فى العصور الوسطى ، ومن أمثلتها قوله :

الثـور والبقـرا ذى العـام ومـا قبله
فى مصر والشام وِفْ غَزَّه مع الرَّمْله
هديك تحبـل وتولـد عجل أو عجله
وذاك فى السـاقيـا يـأكـل بفـرقله

حكايات وطرف

وقد ساق ابن سودون فى ديوانه مجموعة من الحكايات والطرف النثرية ، وهى لاتقل غرابة ولا إضحاكا عما رويناه من شعره ، بل لعلها تتفوق فى كثير من جوانبها على هذا الشعر الفكه الخفيف .

ولهذه الحكايات والطرف فى الديوان بابان، أما أولها فباب الحكايات الملافيق، وأما الثانى فباب التحف العجيبة والطرف

الغربية . واليابان جميعا كتبا باللغة الشعبية الدارجة ، وهو يستمد فيها من التباله وإظهار الغفلة والمفارقة المنطقية على نحو ما رأينا فى شعره . فما نلبث حين نقرأها أن نضحك ، إذ كان يحسن كيف يتغابى ، وهو غباء ينتهى بنا إلى إهمال عقولنا فنضحك لا سخرية ولا استخفافا ، ولا كما يقول بعض الفلاسفة لأنه خالف منطقنا ، وتحول إلى ما يشبه آلة جامدة ، بل لعلنا نضحك لأننا نريد أن نكافئه ، إذ استطاع أن يخرجنا قليلا من عالمنا . ومن منا يذهب إلى ممثل هزلى ليعاقبه بضحكه على شذوذه ، إننا نذهب لنسر ونتمتع حقبة من الزمن بالانتقال من عالمنا إلى عالمه الذى تنعدم فيه قيمنا المنطقية ، وتحل فيه قيم أخرى تقوم على التباين والشذوذ ودفع الأفكار من أعلى الشواهق وقد انتكست وتشوشت واضطربت على نحو ما نرى فى هذه النادرة .

قال الزلابيانى : « كنت - وأنا صغير - بليدا لا أصيب فى مقال ، ولا أفهم مايقال ، فلما نزل بى المشيب زوجتنى أمى بامرأة كانت أبعد منى ذهنا إلا إنها أكبر منى سنا . وما مضت مدة طويلة حتى ولدت ، والتمست منى طعاما حارا . فتناولت الصحفة مكشوفة ، ورجعت إلى المنزل آخذ المكبة (غطاء الصحفة) فنسيت الصحفة . فلما كنت فى السوق تذكرت ذلك فرجعت وأخذت الصحفة ونسيت المكبة . وصرْت كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى ، ولم أزل كذلك حتى غربت الشمس . فقلت : لا أشترى

لها فى هذه الليلة شيئا ، وأدعها تموت جوعا . ثم رجعت إليها ، وإذا هى تئنّ ، وإذا ولدها يستغيث جوعا . فتفكرت كيف أربّيه ، وتحيرت فى ذلك . ثم خطر ببالى أن الحمامة إذا أفرخت وماتت ذهب زوجها والتقط الحب ، ثم يأتى ويقذفه فى فم ابنه ، وتكون حياته بذلك ، فقلت : لا والله لا أكون أعجز من الحمام ، ولا أدع ولدى يذوق كأس الحِمام . ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز ، فجعلته فى فمى ، ونفخته فى فمه فرادى وأزواجا ، أفواجا أفواجا ، حتى امتلأ جوفه وصار فمه لايسع شيئا ، وصار الجوز واللوز يتناثران من أشداقه . فسررت بذلك وقلت : لعله قد استراح . ثم نظرت إليه ، وإذا به هو قد مات ، فحسدته على ذلك ، وقلت : يابنى ! إنه قد انحط سعد أمك ، وسعدك قد ارتفع ، لأنها ماتت جوعا وأنت مت من الشبع ، وتركتهما ميتين . ومضيت آتيهما بالكفن والحنوط . ولما رجعت لم أعرف طريق المنزل ، وها أنا فى طلبه إلى يومنا هذا » .

أرأيت كيف يستخرج منا ابن سودون الضحك بفكاهته ، وما يتقن وصفه من بلاهة الزلابيانى وغفلته . وانظر إليه كيف جعله ينسى المكبة ويأخذ الصحفة ، ثم مازال بعد ذلك كلما أخذ واحدة منهما نسى الأخرى فى تباله يدفعنا إلى الضحك . ونحن نضحك لا لأننا نحتقر ابن سودون أو نزرى عليه ، ولا لأننا نحس برغبة فى الانتقام منه كما يقول بعض الفلاسفة ، بل لعلنا نضحك لأننا نحس إزاءه بعطف ، بل بشىء من المودة ، فإننا نتمنى أن لو كان

معناالآن لنرى كيف يستغل مسرحنا فى هزله وفكاهاته . وانظر إلى مايخلعه على الزلابيانى من غفلة ، إذ جعله يطعم طفله الجوز واللوز ، حتى قضى عليه كما قضى على أمه . ويذهب لإحضار كفنين لهما ، وسرعان ماينسى البيت ، وتخونه ذاكرته ، فيفقد كل دليل يدل عليه .

والحق أننانضحك لا لأننا نريد أن نعاقب ابن سودون ولا لأننا نريد أن نكافئه ، ولكن لأن مثل هذا الكلام يصيبنا بضرب من عدم الاتزان ، فنشعر بسرور ، فنضحك .وليس كل فقدان للاتزان يفضى إلى ضحك ، فإننا نألم أيضا حين تصادفنا حادثة محزنة ، لنفس السبب ، إذ نفقد اتزاننا.وإذن ففقدان الاتزان يؤدى إما إلى ضحك وإما إلى بكاء ومصدر هذا التنناقض أننا حين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانقباض النفسى نألم ونحزن،وحين نشعر مع عدم التوازن بضرب من الانبساط النفسى نسر ونفرح وقد نضحك . ومعنى ذلك أن الضحك مسألة فردية تخضع لشعور الفرد نفسه بضرب من الراحة ، لامسألة اجتماعية تخضع للمجتمع وأنه يريد أن ينزل عقابا أو ثوابا بالأشخاص الفكهين .

ونحن لانريد أن نفسد فكاهة ابن سودون بالاسترسال فى مثل هذا الحديث الجاف ، فلنرجع إليه وإلى هزلياته ، ولنترك الفلاسفة وعلماء النفس يفلسفون الضحك كما يريدون ، والذى لاريب فيه أن ابن سودون كان جعبة فكاهة فأينما قلبت طرفك فى ديوانه اندفعت

تضحك ، وقد تضحك ضحكا عاليا . واقرأ هذا الخطاب الذى كتبه على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبويه فى القاهرة وهو يمضى على هذه الصورة ، يقول :

« أرسل فنين بن أبى المدارس إلى أهله كتابا من الصعيد ، يقول فى عنوانه : « يصل إن شاء الله تعالى إلى دربنا المحروس الذى ضبٌطو سَنْط ولقية ، ويسلم ليد البيت ، مطالعة الوالد » ، وفى داخله :

«السلام عليكم عدد مافى نخيل البلد من أوراق، وعدد أمواج البحر ان تكدر أوراق ، سلام كثير لايسعه طبق ولا طبقين ولا أطباق ، أطول من مقود زرافة ، ولو كان طاق أو طاقين أو ثلاثة أطواق . من كل بد وسبب ، والذى أعرفكم به إن كنتو « لسع » بالحياة أنى أرسلت لكم صحبة القاصد على ، جوز وِزّ فقس الصيف ، من ديك الوزة ، وأيضا خروف أبلق وخروف بلا بلاق . ويا سبحان الله تبقوا تتكلموا جزاف . أرسلتم تطلبوا حبل تنشروا عليه الغسيل ، وقلتوا لنا على طوله ، وما قلتوا على عرضه ! وأرسلتم تطلبوا « كِشْك » وأنا إن أرسلته لكم من غير طبيخ فضيحة ، وان طبختة مايوصل لكم حتى يبرد : وطلبتوا قُللا ، والفلاحين مازرعوا إلا قرع طويل ، فيكون ذلك فى خاطركم . من حقه ، بلغنى أن امراتى حبله ، فلا تخلوها تولد ، حتى أجى ، وإن ولدت قبل ذلك لايكون إلا صبى ، وجرت لى حكايه ، وذلك أنى

غسلت قميصي ونشرته فى السطوح ، فقام بالأمر المقدور ضربه الهوا ، فوقع من فوق لتحت ، وارتجفت بسلامتى رجفة ، وعرفت أن ما هى بشارة خير ، وأنها تدل على موت أمى وأبويه ، والحمد لله كانوا فدايه . وإنى صليت وصمت لله تعالى اللى ما كنت فى قميصى ، ولو كنت فيه كنت انكسرت ، فقلت : لا حوالينا ولا علينا ! ولكن من الرجفة وجعتنى عينى اللى تبقى ناحية المشد ، (ملتزم القرية المالى) وقت أخرج من دارنا . والذى نعلم به الوالد زوج الوالدة أنى دخلت يومْ البستان أنا والخولى ، فرأيت فيه نخل ، شى طويل ، وشى قصير ، وشى مايشبه شى ، فقلت له : دى ايه ؟ قال : بلح ، قلت : ودى ؟ قال : نبق ، قلت ودى : قال جميز ، قلت : ودى ؟ قال مشمش ، قلت ودى ؟ قال : توت ، ورأيت يابويه نخلة فيها كل ورقة قدر الصحفة ، فقلت له ودى إيه ؟ فقال لى : موز ، فعجبنى قوى ، وقلت له : الموز يطلع فى البستان ؟ فقال لى : أيوه فقلت له : والجُبْن المقلى يطلع فين ؟ قال : يطلع فى طاجن الجبان ، وأنت تعرف أن بيتنا على دكان الجبان ، وأنا كل يوم آجى وأطل من الطاقة ، وعمرى ما رأيت فى الدكان نخيل جبن مقلى . وكابرت الخولى وراهنتو من دجاجتى الرقادة لنعجتو الحبلة . فالوالد يبصر لنا إن كان الخولى غلبنى . والذى أعرفكم به كمان أنى لما طلعت البلد ، ولقيت الصابون غالى بعت فرسى البيضة ، واشتريت لى حمارة سودة ، حتى لاتتوسخ

وبس كلام ، فإنى لو كتبت الذى فى خاطرى كله كان الكتاب يجى من هون لفين . بعد السلام على أهل الحارة ، كل واحد وحده ، كتير كتير ، بتاريخ صبيحة يوم الجمعة الحرام بعد صلاة التراويح من يوم عاشورا السابع والثلاثين من جمادى الأوسط سنة تاريخه ، وبالأمارة مطرت المطرة ، وأهل البلد كلهم يعرفوا إن شاء الله » .

وواضح أن ابن سودون كتب هذا الخطاب باللغة الدارجة لعصره ، وهى لا تختلف عن لغتنا الحاضرة وقد جاء فيه بلازمة لأهل الصعيد اذ أبدل الهاء فى كلمة «لسه» عينا فقال « لسع » ونجد فيه أيضا بعض لوازم أهل الشام ككلمة « من هون » وكأنما كان المصريون فى عصر ابن سودون يضحكون من بعض اللوازم فى لهجة إخواننا أهل الشام .

وقد بنى الخطاب على التباله والغفلة منذ العنوان ، ونحن لانمضى فى قراءته حتى نراه يستشكل ، أو بعبارة أدق نرى فنين يستشكل على أبيه اذ أرسل يطلب منه حبل غسيل ولم يذكر له عرضه ، وكذلك أرسل فى طلب « الكشك » ولم يذكر هل يرسله مطبوخا أو غير مطبوخ ، وسأله بعض قلل والفلاحون لايزرعون القلل وإنما يزرعون القرع .

وهى كلها استشكالات تفسر عقل فنين ومايسمه من غفلة ، ويمضى على هذا المنوال ، فيحمد الله أن وقع ثوبه من فوق بعض السطوح ولم يكن فيه ، ويتخذ من ذلك دليلا على موت أبيه وأمه ،

ويقول إن عينه رمدت ويريد أن يقول أنها اليمنى أو اليسرى ، فلا يسعفه بلهه ، فيقول إنها العين التى تكون ناحية المِشدّ حين خروجه من بيته ، ثم يقص أنه دخل بستانا ورأى فيه أشجارا من أنواع شتى ، وذُهل حين رأى شجرة الموز ، وسأل الخولى أين يطلع الجبن المقلى ؟ كأنه تصور الجبن المقلى فاكهة مثل الموز وتندر عليه الخولى فقال له : « يطلع فى دكان الجبان ».وذهب فنين يطلّ على الدكان ليرى شجرة الجبن ، فلم يجد شيئا فذهب يراهنه « من دجاجته لنعجته » . ويستمر ابن سودون ، فإذا صاحبه يذهب إلى السوق ، فيجد الصابون مرتفعا سعره ، فتسوّل له بلاهته أن يبيع فرسه البيضاء ويشترى مكانها أتانًا سوداء حتى لاتتسخ . ثم يؤرخ خطابه هذا التاريخ المشوش .

وعلى نحو ما كان يداعب ابن سودون أبناء الصعيد على لسان فنين نراه يداعب بعض أصحابه من شيوخ عصره ممن كانوا يطيلون فى المناقشات اللفظية وما يتصل بها من بيان لما تفترق فيه الأشياء وتجتمع . ونذكر مثالا لذلك حديثه عن الفرق بين المركب والفرس يقول .

« إن من عرف العلم بتحقيقه ، وانعجنت فكرته بدقيقه ، علم أن بين المركب والفرس فروق من كم وش (وجه) الفرق الأول : أن المركب أثقل من الفرس ، بدليل أن الفرس إذا حملوها على فرس أخرى تقدر تحملها ، ولو حملوا المركب على فرس ما تقدر

تحملها . الفرق الثانى : أن المركب أكبر بدليل أن الفرس إذا وضعت رأسها عند رأس المركب لايصل ذنبها إلى ذنب المركب ، وأيضا فان المركب ينام عليها الواحد بالطول والعرض وايش ماخطر له بخلاف الفرس ، وأيضا فان المركب ينام على ظهرها واحد وعشرة وأكثر وظهر الفرس ما هى كده ، وأيضا فلفظ فرس ف ر س ولفظ مركب م ر ك ب فمركب أزيد بحرف والزائد أكبر من الناقص . الفرق الثالث : أن الفرس لها سمع وبصر ، تسمع من صاحبها إيش ما قالة لها وتبصر كيف تحط رجلها ، والمركب ما هى كده . الفرق الرابع : أن الفرس لها أربع قوائم تندار بهم إن خطر لها من هون لهون ، والمراكب ما هى كده . ولا يَرِد على هذا الصندوق والسرير بأن لكل واحد أربع قوائم ولاينداد ، لأن الكلام فيما يركب والسرير وان كان يركب إلا أنه لا يركب للسفر ، والكلام فيما يركب للسفر . الفرق الخامس : أن بطن المركب مغرقة فى الميه وبطن الفرس مسيبة ، إلى غير ذلك من الأفراق » .

واستمع إليه ، وقد استفتاه بعضهم فى الدجاجة هل هى من البيضة أو العكس ، فأفتاه على هذا النحو :

« لانَقْلَ عندى فى هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر أن الدجاجة كانت أولا ، ثم باضت ، وحصل التناسل ، ومما يؤيده الحدوته المشهورة ، وهى : أحدتك حدوته ، بالزيت ملتوته ، كان

ما كان ، فى قديم الزمان ، أولاد حمدان ، يطلبوا نانا ، والنانا فى التنور ، والتنور يريد له حطب ، والحطب فى الجبل ، والجبل يريد لو فاس ، والفاس عند الحداد ، والحداد يريد له بيضة ، والبيضة فى الدجاجة ، والدجاجة تريد لها لقط ، واللقط فى الحظيرة ، والحظيرة تريد لها مفتاح ، والمفتاح عند رباح ، مايجى من الساعة لشق الصباح . فقال : « والبيضة فى الدجاجة ، ولم يقل الدجاجة فى البيضة ، ولا يختص هذا بالدجاجة ، بل الوزة كذلك أيضا » .

وواضح أنه يستخدم مصطلحات بعض الشيوخ لعصره فى إجاباتهم من مثل : « لانقل عندى فى هذه المسألة ، والأمران محتملان ، والأظهر ، ولايختص ، وقال ولم يقل » وذكر الاصطلاح المعروف فى لغتنا الدارجة : « أحدتك حدوته بالزيت ملتوته » ، وقال : « كان ما كان فى قديم الزمان » أما الحكاية نفسها فلها أمثلة قصيرة تدور فى قصصنا العامى .

وعلى هذا النمط كان ابن سودون يداعب أصحاب العلوم والفنون فى عصره ، كما كان يداعب غيرهم من أهل مجتمعه : الريفيين وغير الريفيين من الصعيد وغير الصعيد . والحق أنه كان فكها مبدعا ، وكان يعتمد فى فكاهاته دائما على المفارقات المنطقية وما يطوى فيها من غفلة وبله . ولم يكن يحتال لذلك بأشياء خيالية ، بل كان يعمد إلى واقع حياته ومجتمعه فيتخذ مايريد من هزله ، إذ

كان يعرف كيف ينقل أقرب الأشياء والموضوعات منه إلى أدوار هزلية مضحكة ، وهى أدوار يضطرب إزاءها توازننا ، ونشعر كأننا قد خرجنا من عالمنا إلى عالم آخر ، هو عالم ابن سودون ، وهو عالم تعرض فيه الأفكار عرضا مضحكا على نحو ما نجد عند ممثلى عصرنا الهزليين فى أدوارهم الفكهة المضحكة .

فى العصر العثمانى

هزل في عصر الظلام

بالرغم من أن مصر أصبحت فى هذا العصر ولاية عثمانية ، وأن الظلام خيمً عليها فى كل شىء ، فساءت أحوالها الاقتصادية والعلمية والأدبية ، بالرغم من ذلك تظل لها طوابعها الفكاهية وقد تلمع فيها السخرية السياسية من حين إلى حين ، فالجبرتى يروى أن أهل القاهرة غضبوا على وال عثمانى ، فتجمعوا تحت قصره ينادون عليه معلنين غضبهم على بعض تصرفاته :

باشا ياباشا يا عين القمله   من قال لك تعمل دى العمله
باشا ياباشا يا عين الصِّيره   من قال لك تدبر دى التدبيره

وتجرى الفكاهة فى حياتهم رغم ما يجللها من بؤس وشقاء ، بل

إنهم يحوِّلون البؤس والحرمان والجوع إلى فكاهة وهزل فى الأطعمة وألوانها ولبعضهم :

قالوا تحب المدمَّس قلت بالزيت حار
والعيش الابيض تحبه قلت والكشكار

وهناك شخص يسمى عامر الأنبوطى ، كان فكها ، ويروى عنه : أنه كان كلما سمع لشخص قصيدة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل وضروب الأطعمة المختلفة ، وكان علماء الأزهر يكرمونه ، خوفا من لسانه ، وأن يقلب أشعارهم صنوفا من الطعام . وبلغ من إتقانه لهذا الصنيع أنه نظم ألفية (ألف بيت) على غرار ألفية ابن مالك المشهورة فى النحو ، ومن قوله فيها :

طعامنا الضَّانى لذيذٌ للنَّهِمْ   لحما وسَمْنا ثم خُبْزا فالتَقِمْ

ومنها :

والأصلُ فى الأخباز أن تقمَّرا   وجوَّزوا التقديد إذ لا ضررا
وامنعه حين يستوى الخرفان

وهو فى هذا ومثله يستخدم نفس ألفاظ ابن مالك ، ويحولها من النحو إلى الطعام ، ولا ريب فى أن ذلك كان يضحك الناس ، وخاصة من أكبّوا على حفظ ألفية ابن مالك ، إذ تفجأهم هذه الألعاب الهزلية بما يحفظون من صيغ ابن مالك وعباراته . ومن كلامه

على وزن لامية مشهورة فى الأدب العربى، تسمى لامية العجم، وكان العجم يفتخرون بها فى مقابل لامية أخرى تسمى لامية العرب، يقول معارضا لها:

طال التلهُّف للمطعوم واشتعلتْ
حُشاشتى بحمام البيت حين قُلِى
أريد أكلا نفيسا أستعين به
على العبادات والمطلوبِ من عملى
والدهرُ يفجع قلبى من مطاعمه
بالعدس والكِشْك والبِيصار والبصَلِ
ناديت هيا ولا تُبْطى بِغَرفِك لى
فإنه خُلق الإنسان من عجَلِ

وهذا كله هزل ودعابة، ودليل على أن المصريين لم ينسوا حتى فى عصور الظلام ما طُبعوا عليه من التندر والفكاهة.

هزّ القحوف:

هو كتاب طريف أُلفّ فى هذا العصر لغرض تصوير أهل ريف مصر وبيان ما هم عليه من فقر وبؤس وجهل ألفه شخص يسمى يوسف الشربينى، وكان عالما واعظا، ونظر من حوله، فرأى السواد الذى كان يغطى أودية مصر فى ذلك العصر، ورأى معه

تعاسة أهل الريف، فنظم قصيدة سماها قصيدة أبي شادوف يصور فيها الشقاء المحيط بهم.والشادوف آلة معروفة يُسْقَى بها الزرع، وقد يسمى أهل الريف المصرى شخصا باسم أبي شادوف لغرض الضحك عليه والسخرية منه. ومن ثم سمى يوسف الشربينى قصيدته باسم قصيدة أبي شادوف، وهى قصيدة من بحر الطويل، ولكن لا تظن أنها ألفت باللغة العربية، فهى عامية خالصة، وقد وصف فيها حياة رجل الريف فى عصره بجميع صورها وألوانها من أكله إلى عمله فى حقله، إلى صلته بالحكومة فى عهده، وهو يسوق ذلك فى فنون طريفة من السخرية والهزل.

ولم يكتف يوسف الشربينى فى وصف حال رجل الريف بهذه القصيدة، بل ذهب يشرحها على طريقة معاصريه فى شرح القصائد الجدية، وهو شرح طويل اختار له هذا الاسم الغريب «هز القحوف». وهو يتقدم هذا الشرح بقوله:

«ان مما مرَّ علىَّ من نظم شعر الأرياف، الموصوف بكثافة اللفظ بلا خلاف، قصيد أبي شادوف، فوجدته قصيدا ياله من قصيد، كأنه عُمل من حديد، أو رُصَّ من قحوف الجريد، فالتمس منى من لا تسعنى مخالفته، ولا يمكننى إلا طاعته، أن أضع عليه شرحا يحل ألفاظه السخيمة، ويبين معانيه الذميمة، وأن أتحفه بشرح لغات الأرياف، وذكر فقهائهم الجهال وفقرائهم الأجلاف! وياله من

شرح لو وُضع على الجبل لتدكدك ، ولو نُقش على عمود الصوارى لتحرك . وقد سميت هذا الشرح « هز القحوف بشرح قصيد أبى شادوف » وأطلب من القريحة الفاسدة ، والفكرة الكاسدة ، الإعانة على كلام أعرفة من بنات الأفكار يحاكى كلام ابن سودون ، فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة ، لأن النفوس الآن متشوقة إلى شىء يسليها عن الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم » .

وليست هذه الهموم والغموم التى يشير إليها الشربينى إلا ما كان يصبه العثمانيون وأحلافهم من المماليك على رءوس المصريين من أسواط العذاب . ودائما نجد مصر حين يجثم على أنفاسها كابوس دولة أجنبية تنفس عن همها وغمها بالفكاهة الساخرة على نمط ما يصنع الآن يوسف الشربينى . وهو لا يتخذ من شخصية بعض العثمانيين أو المماليك ما يريد من هزل وسخرية ، فقد كان الحكم العثمانى قاسيا ، وكان الناس لا يستطيعون أن يعرضوا فيه لحاكم بالتشهير فضلا عن الفكاهة والتندير . ومن أجل ذلك ارتد الشربينى إلى الشعب يصور ما هو عليه من فقر وجهل فى أسلوب لاذع من السخرية والتهكم ، وصور أثناء ذلك ظلم الكشاف (المدير) والملتزمين ومن يجمعون الأموال والضرائب كما صور نظام السخرة أو ما كانوا يسمونه « العونة » وكيف كان الملتزمون يسخرون أهل الريف فى زراعة أراضيهم بدون

أجر. والكتاب لذلك يعد وثيقة مهمة فى تاريخ هذا العهد وتاريخ مصر فيه.

وقسم الشربينى شرحه : «هز القحوف» إلى جزأين كبيرين: جزء خصه بتصوير حياة أهل الريف وبيان ما هم فيه من جهل وفقر، وجزء خصه بشرح قصيدة أبي شادوف. ونراه يقول فى مفتتح الجزء الأول إن أهل الريف «ليس لهم انضباط، وأحوالهم شياط وعياط، ووِرْدُهم عند الأسحار، التفكر فى الغنم والأبقار، وتسبيحهم فى الظلام، هات النبوت والحزام، وحط العلف، وهات الكلف». وتعرض بعد ذلك لغرابة أسمائهم وكُناهم، ثم وصف حفلة عرس من أعراسهم، وروى فيها عن بعض شعرائهم:

ياعروسه يا ام غالى	انْجلى ولا تبالى
انجلى يا وجه بومه	زاعقه وسط الليالى
وجهك بالنقش يشبه	وجه ضَبْعه فى الرمال

ثم يصور الشربينى ما كان عليه أهل ريف عصره من بؤس وفقر، فمن ذلك أن شخصا منهم رأى فى القاهرة سمك (البساريا) فظنه الكنافة التى يتحدث الناس عنها. ويستطرد الشربينى إلى ذكر فكاهاتهم ونوادرهم فيروى أن رجلا منهم اشتكى شخصا إلى القاضى، وكان سبب الشكوى أنه نزل حقله بدون أذنه، وأخذ منه برسيما لدابته، فأحضر القاضى المتهم وسأله، فاعترف، إلا أنه

اتهم المدعى بأنه ضربه ضربا مبرحا ، فسأل القاضي المدعى كيف تضربه ؟ فرد عليه قائلا : « أتابيك ياقاضى تور ، وأنت إذا نزلت غيطى يا هل ترى أضربك ، داأنا أكسر قرنك ولا أخليك تطلع سالم » .

ويضع الشربينى على أهل الريف نوادر يدل بها دلالة بينة على الجهل الذى كان سائدا حينذاك ، ومما وضعه أن رجلا منهم سأل آخر : « إيش هجاؤك بربق ؟ فأجابه : ب ، ر ، ب ، ق ، واو ، فقال له : إيش عرفك أن فيها واوا ؟ فقال له : دلتنى عليها النقطة التى فوق الواو ، فقال له : إن عشت تبقى فصيحا لأخوالك ! »

ويتسع الشربينى بوضع النوادر على فقهاء الريف مما يصور جهلهم الشديد ، فمن ذلك أن شخصا سأل أحدهم عن تفسير قوله تعالى : « يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى » ما معنى أقلعى ؟ فقال الفقيه : « أى سيرى مثل المراكب المقلعة ! » . ومن ذلك أن فقيها منهم ذهب إلى أحد العلماء فى القاهرة ، وطلب منه أن يقرأ عليه أجرومية النحو على مذهب الشافعى ! وهو مذهب معروف فى الفقه الإسلامى لا فى نحو اللغة وقواعدها .

ويعرض الشربينى بعد ذلك طرفا من خطبهم يوم الجمعة عرضا لا يلم به القارئ حتى يمعن فى الضحك ، واقرأ له من خطبة :

« اعلموا ياأهل بلدنا أن عندكم قمح كثير ، وتبن وشعير ، وأنتم فى خير من رب العالمين ، فأنتم تفيقوا لزرع الوسية (أرض الملتزم)

وإلا صبَّحكم الكاشف بداهية وبلية، وغدا تسرحوا للعونة والسخرة، وفيقوا «انتبهوا» للغنم والبقر، وافحتو أبياركم، وفيقوا لدوركم وجداركم، وأكرموا الخطار بالعدس والبيصار، تنجوا من عذاب النار. على ايش ياحبايب تهجرونا بلا سبب، الله الله! قولوا لا اله إلا الله، من وحَّد الله ما خيَّبه الله، آمين والحمد لله رب العالمين»

والخطبة كما ترى عامية، وفيها ما يدل على بؤس القوم وأن طعامهم «العدس والبيصار» كما أن فيها ما يدل على بطش الكاشف وما عُرف به العصر العثمانى من العونة أو السخرة ونحن لا نصل إلى قوله: «على ايش ياحبايب» حتى نفزع إلى الضحك على هذا الخلط فى خطبة الجمعة التى أريد بها إلى الوعظ الدينى، فإذا هى تخرج إلى هذا الهذر والهزل.

وأساس الفكاهات فى الكتاب المفارقة فى المنطق. فالحقائق تنقلب صورها أمامنا وتنعكس، وكان ابن سودون على مامر بنا فى غير هذا الموضع يقيم فكاهته على هذا الأساس، ويظهر أن الشربينى كان يتأثر به فى صنع فكاهاته، وقد ذكره وأشاد به غير مرة فى كتابه. ونقل عنه الخطاب السابق الذى كتبه أحد أبناء الصعيد إلى أبويه فى القاهرة، وأضاف إليه خطابا أرسله بعض فقهاء الريف إلى صديق له فى بولاق، وهو يجرى على هذا النمط:

« السلام من الفقى أبو على اللى اسمه محمد على حضرة

صاحبنا اللى يطالع زى مايطلع الزرع فى الغيطان ، ويتكلم بالفهامة ، وياما له علينا شهامة ، اللى يبيع الكتب المنظومة من الكلام زىّ قصة الجارية تودد والورد فى الأكمام ، حاوى الكتابة فى السطور ، ومن يعرف كتاب الفخ والعصفور . وأنا فى شوق واشتياق لا يحمله جمل ولا ناقة ولاحمار ولا حمارين ولا بغل ولا بغلين ولا زرافة . وأنا كنت أريد أجيك وحياة رأسك ما عوقنى إلا سرموجتى مقطعة . وأنا أقول لك شوف لى كتاب كنت شفته من زمان وسمعت به . آه عليه ! وياما قالوا لى عليه الناس ، وهو قصة مدينة النحاس ، وما جرى فيها من العجايب والغرايب . وأنا امبارح كنت رايح أشيع لك كلام افتكرته وعاود نسيته ، الله يسامحك ويسامحنى ! الله ، الله لا غالب إلا الله ، والسلام عليكم وعلى من كانوا جيرانك على اليمين والشمال . وكتب هذا الكتاب أبو على واسمه محمد . وكتب عنوانه : « توصل دى الورقة مع أبو عمارة اللى يبيع فى بلدنا الفول الأخضر والمش والزيت الحار ، ويوصلها لبولاق ، وواحد يوصلها لسوق الكتب اللى يقولوا فيه : حراج حراج »

وفى هذا الخطاب غفلة واضحة ، وفيه أيضا هذا الجهل الذى يجعلنا نضحك لأنه يخالف مألوفنا فى العبارة والتفكير والمعرفة .

وما يزال الشربينى يعرض علينا نوادر عن أهل الريف مازجا لها

ببعض النوادر القديمة التى قصها الرواة عن جحا وأبى نواس وغيرهما .

ويخرج الشربينى من هذا الجزء الذى اعتبره كالمقدمة لكتابه إلى الجزء الثانى الذى عُنى فيه بشرح قصيدته التى أشرنا إليها . ونراه يقف أولا عند نسب الناظم وهو أبو شادوف فيذكر الآراء المختلفة التى قيلت فى هذا النسب على نحو مايصنع شراح القصائد الجدية . ثم يتحدث عن قريته واختلاف الرواة فى اسمها ، ويستدل لكل اسم بشعر يؤيده ، وأخيرا يوفق بين هذه الآراء المتضاربة . ثم يتركها إلى الكلام عن أسرته وخاصة أباه البائس الذى كان يملك حمارا أعرج وعنزتين وحصة فى ثور الساقية ونصف بقرة وعشر فرخات وديكا وأربع كيلات نخال من شعير .

ومازال يتكلم عن أبى شادوف وعن والده وحياته ووفاته ، حتى إذا تم له كل مايريد من التعريف بالشاعر وأسرته انتقل إلى الكلام عن القصيدة نفسها ، ويقف عند كل بيت من أبياتها ، فيشرحه شرحا مفصلا ، وهو يعتمد فى هذا الشرح على معجم لغوى يسميه « القاموس الأزرق والناموس الأبلق » .

والقصيدة ليست خفيفة الروح ، وإنما الخفيف والطريف حقا شرحه لها وماساقه أثناء هذا الشرح من تقاليد أهل الريف فى عصره وعاداتهم ومآكلهم ومشاربهم ومجتمعاتهم ومجالسهم وكيف كان العثمانيون يظلمونهم ، وينهبون طيبات أرضهم ، وكيف ساموهم

سوء العذاب . وكأن مصر بقرة حلوب فهم يعتصرونها ، ولايبقون لأبنائها قطرة تروى ظمأ أو تشفى غليلا وطبيعى أن تفسد حياة المصريين وأن تتحول إلى هذه الصورة البائسة من الجهل والفقر . والشربينى يعرض علينا ذلك بفكاهاته ونوادره .

وفى هذا الجزء الثانى من كتابه خطبتان صاغهما على نسق خطبتى الجمعة الطويلة والقصيرة ، وقد بناهما على ذكر المأكولات التى كان يحرم منها الشعب المصرى فى عصره ، ولا يعرف أكثرها إلا سماعا ، وهو يستهل القصيرة على هذا النمط :

« الحمد لله مزيل الحـزَنْ ..واعلموا أن اللحم الضانى سيد الأطعمة ومصلح للبدن ، واعلموا أن القشطة لا تترك ، وأن المهلبية أحسن وأبرك ، فتهيأوا لأكلكم وشربكم ، وللأربعة الأعيان : التين والزيتون والخوخ والرمان .. والستة الباقية من العشرة الأطعمة المفتخرة : الماوردية ، والمهلبية ، والشعرية بالزغاليل المربية ، والأرز المفلفل باللحم الضانى المحشى المحمر ، والكنافة المتبلة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر ، والقطايف الغارقة فى السمن والعسل ، والقرع المحشى باللحم والبصل ، والبقلاوة الموصوفة ، والخرفان المعلوفة ، واليخنى السمين ، والقرمزية ، متعنا الله وأياكم بهم أجمعين . اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات ، واجمع الشمل بعد الشتات ببقاء السكر النبات ، مَنْ أصله من

القصب الملوانى . اللهم وأيده بأرماح القصب ، وبسبايط الرطب ، وبعناقيد العنب ، واجمعنا عليه من أول النهار وفى وسطه وآخره ، اللهم وأهلك الثلاثة الفجار : العدس والبسلّة والبيصار . واقتدوا بسنة خير الأنام ، ولاتتضاربوا ولاتتخابطوا ، وكونوا عباد الله أخوانا » .

وعلى هذا النحو من الهزل تناول الشيخ الشربينى هذا الموضوع الجاد الصارم ، موضوع خطبة الجمعة ، وما يكون فيها من وعظ وإرشاد ونهى وتقريع ودعاء بهذه الطريقةالهزلية وما تحمل من لذع ساخر بما تصور من بؤس المصريين فى العصر العثمانى بؤسا لا يدانيه بؤس . وتعمّد أن يجلب بعض الصيغ التى تعود الخطباء فى صلاة الجمعة أن يذكروها ولكن بعد أن حولها على طريقته الفكهة ، وما من ريب فى أن هذا كله فكاهة لما يحمل من مفارقة للمنطق والمألوف . والحق أن الشربينى كان من أعاجيب زمانه فى الهزل والسخرية والهذر والتندير .

فى العصر الحديث

المضحكخانه

رافقت المصريين هذه الروح الفكهة فى عصرهم الحديث ، وأكبر من اشتهروا بها فى النصف الثانى من القرن الماضى الشيخ « حسن الآلاتى » المتوفى سنة ١٨٨٩ وقد بدأ حياته بالدراسة فى الأزهر ، ثم تحول إلى الغناء ، فارتقى به ووضع كثيرا من أغانيه ، ومن أجل ذلك لقب بالآلاتى ، وكان خفيف الظل كثير الدعابة . وتروى عنه نوادر وفكاهات كثيرة ، من ذلك أن أحد الوزراء أهداه « مركوبا » فى يوم عيد ، فلما وصلت إليه الهدية أرسل يشكره قائلا : « إن كل شخص يحشر يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويقال إنه عاد إلى بيته يوما فسأل زوجته : « ماذا أعددت من الطعام » ، فقالت : « ليس عندنا طبيخ ، ولكن أعددنا لك خبزا

وشماما » ، فجلس يأكل من الخبز والشمام ، وبينما هو فى طعامه إذ سمع رجلين يتشاجران فى الطريق ، وأحدهما يسب الآخر قائلا : « يارجل ياطبيخ » فأخذ الرغيف فى يده ، وخرج إليهما مسرعا ، وهو يقول : « أين الرجل الطبيخ ؟ » فضحك الناس وانفضت المشاجرة . وفقد بصره فى أواخر حياته ، وتصادف أن سمع رجلا يتغنى بين قوم بأغنية من أغانيه ، وهو يقول فى أثناء غنائه : « أنا اليوم أغنى كالشيخ حسن الآلاتى تماما » فقال له على الفور : « لا ، بس ناقص العمى ، يابنى » .

وله كتاب سماه ترويح النفوس يقع فى جزأين ، وقد بناه من الأزجال الفكاهية والمواقف الهزلية ، وهو يحدثنا فى مقدمته أنه اتخذ وجماعة من رفقائه الفكهين مقهى فى حى الخليفة سموه « المضحكخانه » كانوا يجتمعون فيه على التقليس والتنذير والفكاهة ، وقد نصب نفسه رئيسا على الجماعة . ثم يأخذ فى سرد هزلياته من أزجال وغير أزجال . وهو فى أكثره يقلب المواقف الجادة من مثل الدعاوى والعرضحالات إلى مواقف هازلة ، وكثيرا ما كان يتعرض للتهنئة بزفاف فيصوغه هذه الصياغة أو ما يماثلها :

« تهنئة للسيد العتيد الأعمى البليد . قد سرَّنا ما سمعناه من النائحة ، من عقد خرابيش المصونة ، الدرة المكنونة ، وإنه لما خفقت بالمضحكخانة أعلام السرور ، وعمَّ جميع المحبين الكدر والحبور ، بزواج البنت ، الست نسيم الصبا هانم ، سلالة الأخيار

البهايم لحضرة الشاب النشال ، الذى صار من الآن لقديم الزمان كثير المال فقير الحال » .

ويمضى فى مثل هذا الهزل الذى يصيبنا بغير قليل من الذهول لكثرة مايرتفع بنا ويهبط فى هذا المنحدر من منحدرات الضحك وهو منحدر يقوم على المفارقات إذ يذكر فى المديح مثلا الكلمة وضدها على نحو مايلاحظ القارىء فى أوصاف العروس السابقة وفى نحو قوله فى افتتاح خطاب : « إلى السيد المهاب والضبع الوثاب الصادق الكذاب عالم القصر (فى الصلاة) ومصلى الظهر وتارك العصر ، من تهابه الخرفان ولا تحتقره الشجعان » . وقد أكثر من الأزجال فى كتابه . وربما كان ألطفها ماأنشده بمناسبة زواج ابنته يصف ماأقامه لها من مهرجان حافل ، وهو يستهله على هذا النمط :

أحمـــد الله تمت افـــراحى الجليله
والحسـود مكمـود وأحـــزانـه طـــويله
كنت يـوم فى المنـدرة نـــايم ممـطط
بعد موت أمى وأنـا زعلان مـزقطط
مـــادريت إلا ونسـوان جَتْ بـــطبلة
اللى لابسه حبَره واللى لابســه سبله
قلت للزوجـــه الحقينى يـــا فـــلانــه
قالت : اسكت دول نساء أصحاب أمانه

فيهم الحرة الكريمة أهل السيادة
ست دلَّالة حمير تسمى سعاده

ثم يقول :

فى سنة خمسه وألف وتلتميّه
فى ربيع الثانى كان عقد البُنيّه
والولد قاصر وأمه له ولِيّه
أما أبوه نفسه مايطفيش الفتيله
قالت الزوجة الصداق جاب طقم صينى
ه قلت مقصودك بخزيك تقمصينى
لما أنام عريان تعالى قرفصينى
إن لقيت شيء خديه وانتى الوكيله
راحت السُّكره وجاتنى ألف فكره
صرت أحسب فى الجهاز كرّه بكره
قالت اخوانى الكرام أهل المبره
كل ماتطلب يجيك ولك الجميله
صار جهاز البنت يدخل بالمحارم
شيء كتير عم الأجانب والمحارم
من أكارم دأبهم فعل المكارم
لكن « الشمسى » بدأنا بالفضيله

والهمـام من يـأتى بـابـه كـل وافـد
أعنى عثمان بك رفيـع المجد خـالد
ابن قطب العصر راشـد كل قـاصد
اجعله فى دفـع المهالـك لـك وسيله
وانتهى لى كل خير من بذل فكرى
واشتهـر بين الخـلايق فضـل صبـرى
جات مهمات الفرح والعرس تجـرى
مثـل مـاتجـرى ورا النـاقـه الفصيله
قلت للطبـاخ تعال اكتب لى قـايمـه
لاجل تبقى شهرتى فى مصـر قايمـه
جا حِلف ماياخد إلا الأجره صايمـه
كان جدع صـادق أمين إيـده طويله
قال لى اكتب مركبين ملح انجليزى
وأربعين فدان فسيخ مدموغ باريـزى
ألف قنطار توم وربع فريك عزيزى
غـير حصـانـين فجـل وأردبـين بِليله
ألف قنــطار زيت قـزازه للقــطايف
لتــربيـة فــول مــدمس للخشــايف
مش قـنــطار للبـلوظــة والنــواشف
عــدس فـدانــين وقـطعــة جنــزبيله

طـن بقــدونس بــسله ألـف رزمــه
يملحــوا الـسلطة يخلّوهــا جـيــله
بعد عشرين عصر من شوال افندى
ليلة السبت ابتـدت بالفـرح عنـدى
من عشــاهـا والأمم تقـــطر وتنـدى
مثـل كثبـان رمــل من وادى مهيله
فجر يوم السبت لاح وفضلت أهاتى
دور أقـول يانـاس ودور يـامسلكـاتى
حـــين سمعنى استغيـث روى هــاتى
دق لـيـله مــاهــا لـيـله مــثيــله

ويستمر فى هذا الهزل الذى كان يملأ به « المضحكخانه العلية » والذى كان دائما يتحول إلى تهريج واثارة للضحك وكأن الآلاتى أراجوز والناس من حوله يتفرجون من أمثال حسن (بك) الشمسى وأحمد (باشا) راشد وعبد الله (باشا) فكرى ، وهم يضحكون وهو لا يكف عن تهريجه وهزله .

ألقاب وأدباء

من طريف ما كان فى عصر إسماعيل وابنه توفيق أن إبراهيم طاهر وعبد الحميد نافع أخذا يستعرضان الأدباء والشعراء فى عصرهما ويعطيان لكل أديب ولكل شاعر لقبا على سبيل التندر.

فمن ذلك أن محمود صفوت الساعاتى كان نحيفا قصيرا كثير الحركة والتلفت حتى إنه يشبه الديك فى كثرة وثباته ولفتاته، فسمياه ديك الجن وهو اسم شاعر قديم . وكان السيد على أبو النصر نديم إسماعيل وشاعره طويلا طولا مفرطا ، فسمياه ابن العماد، وهو من المؤلفين الماضين . واشتهر على الليثى بالظرف والفكاهة ، فسمياه أبا دلامة، وهو اسم نديم عباسى، وكان محمود سامى رشيقا فى القد والقامة ، فسمياه ابن رشيق، وكان فى عين السيد صالح مجدى بعض حوص (ضيق) فسمياه الأحوص، وكان الشيخ حسين المرصفى ضريرا ذكيا فسمياه أبا العلاء، وكان صهره الشيخ زين المرصفى لا يتكلم إلا قليلا، فسمياه ابن السكّيت.

وعلى هذا النحو كانا ينتخبان لاسم أحد المعاصرين من الشعراء أو الكتاب اسم شاعر أو عالم قديم يدلان باشتقاقه على ما يريدان من تصويره .وتبعهما فى ذلك محمد أكمل، فسمى طائفة ممن عاصروه أسماء جديدة مثل ابن المقفع وابن هرمة، وهو اسم شاعر عباسى، وكل ذلك لغرض الضحك والتنذير.

ولم يكن بين المصريين حينئذ أديب أو شاعر إلا وهو يشارك فى هذا الفن من الدعابة والفكاهة ومما يروى من ذلك أن رياض (باشا) كان يشغل وظيفة « المهردار » فى عهد إسماعيل، وأمر أن يوضع لكل حجرة فى قصر عابدين عنوان يدل عليها ، وكان بين

الغرف غرفة خاصة بالشيخ على الليثى نديم إسماعيل وشاعره ، فأمر أن يكتب عليها « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » مداعبا بذلك الشيخ الليثى، فلما وقع نظره عليها لم يلبث أن أنشد :

كان عندنا ساقيه عجب تسقى (ريـاض) الجلنار
دوّرنا فيها التـور عِصِى دوّرنا فيها (المهـر دار)

والتورية واضحة. ومما يروى عن عبد الله (باشا) فكرى أديب القرن الماضى المشهور أنه رأى شيخا يسمى « السمنى » جالسا فى موضع ظاهر للشمس فقال يا شيخ سمنى أما تخاف أن تسيح من الشمس ، فأجابه توا أنا أقدح فكرى .

وكان محمد عثمان جلال مترجم موليير فى القرن الماضى خفيف الروح ميالا للفكاهة والدعابة ومن النكت المستملحة التى تروى عنه أن محمد سكر الكتبى دعاه مع جماعة من الأدباء لتناول الغداء عنده ، وتأخر الغداء، فدخل محمد سكر يستعجل الطابخين، وغاب ، وسمع المدعوون « الهاون » يدق دقا شديدًا ، فتساءلوا ترى ماذا يصنعون ؟ فأجاب محمد عثمان جلال على الفور : دول بيكسروا راس سكر. وتأخرت ترقيته فى عهد رياض (باشا) ناظر النظار، فكتب إليه :

الخير على الناس عم وفاض وكـــل إنســـان استكفـى

وبس نـا يا عم ريـاض   وقعت من خـرق القفـه

ومما كان يتهكم به المصريون ويتندرون به فى مجالسهم أثناء هذه الفترة التركية من حياتهم مصورين عجرفة الترك عليهم بينما يأكلون من عرق جبينهم وخيرات بلادهم هذه السخرية التى كانت تدور على كل لسان قالوا : « إن محمد أغا التركى كان يتسول ويقرع الأبواب فى عنف » فيقال له : « من ؟ » فيقول : « هات حسنة لسيدك محمد أغا »

وعلى نحو ما كانوا يتهكمون بالترك كانوا يتهكمون بالأجانب الذين يبتزون أموال المصريين عن طريق الربا الفاحش، ويتندرون عليهم ، فمن ذلك أن أحدهم لقى بعض الفلاحين فى يوم شديد البرد، واسترعى نظر أحدهم أنه لا يلبس قفازا فى يديه، فلما قال ذلك لبعض رفاقه أجابه توا أنه ليس فى حاجة إلى قفاز مادامت يداه فى داخل جيوبنا. وأخذت تكثر الصحافة الهزلية، وتكثر فيها الفكاهات السياسية والاجتماعية.

الصحف الهزلية

لم نكد نوجد لأنفسنا صحافة يومية فى عصر إسماعيل حتى ظهرت صحف هزلية، تستمد من هذا الجانب الفكه الخالد فينا ،

وزكّاه فيها أننا أخذنا نطلع على الصحافة الغربية ونقتبس مما فيها من سخرية ونقد لاذع فى السياسة وفى المجتمع . وبذلك أخذت فكاهتنا تتحول من الهزل والقفش والتوربة اللفظية إلى كل خلل فى حياتنا السياسية أو حياتنا العامة ، فتستخرج منه السخرية واللفظة المضحكة .

وبذلك خرجت فكاهتنا من طور إلى طور، فاستبدلت بالأشخاص واللغو مصالح الأمة، وبسلوك الفرد سلوك الجماعة . وأشهر من بدأ هذا التطور صنوع وعبد الله نديم، ويعرف الأول بصحيفته الهزلية « أبو نظارة » بينما يعرف الثانى، وهو من زعماء الثورة العرابية، بصحيفتيه : « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » ونقف وقفة قصيرة عند كل صحيفة من هذه الصحف، ثم نتحدث عن صحف أخرى تلتها .

أبو نظـــارة

أنشأ يعقوب صنّوع هذه الصحيفة سنة ١٨٧٦ وكانت تجرى على ألسنة المصريين باسم « أبو نضارة » وقد استعان فيها باللغة الدارجة والصور الكاريكاتورية ، وصب شواظا من نار على الخديوى إسماعيل وسياسته الخرقاء وجشعه وبذخه، فأغلق صحيفته سنة ١٨٧٨ ونفاه من البلاد فذهب إلى فرنسا . ومن هناك كان يرسل بصحيفته إلى مصر فى أسماء مستعارة حتى تصل إلى

قرائه، فمرة يسميها « أبو صفارة » ومرة يسميها « الحاوى الكاوى » ونحو ذلك .

وصنوع فى هذه الصحيفة يصور فى وضوح الروح الوطنية التى بثها جمال الدين الأفغانى وتلاميذه من أمثال الشيخ محمد عبده. وكان لصنوع فيها هدفان: مهاجمة الامتيازات الأجنبية ومهاجمة الخديوى إسماعيل وسياسته الحمقاء وظلمه الصارخ للمصريين، وهو يصور ذلك فى مقالات وقصص ورسوم كاريكاتورية ساخرة. وتارة يسمى إسماعيل شيخ البلد أو شيخ الحارة، وتارة يسميه « فرعون » إلى غير ذلك من أسماء .

ونعرض لبعض رسومه التى تصور فساد الحكم حينئذ، فمن ذلك صورة تضم فلاحا هزيلا، وبجانبه إسماعيل سمينا بطينا وأمامه رئيس وزرائه، وفى يده اليمنى سلة عليها مأكولات فاخرة وفى يده اليسرى سلة أخرى بها قوارير خمر مختلفة، وكتب تحت الفلاح «يا مسلمين اشفجوا الفلاح بيموت من الجوع» وكتب تحت إسماعيل على لسانه: «أنا سمنت من اللحم وشرب الخمرة وأنا خايف من الجماعة (يريد الفلاحين) يغلبونا» وكتب تحت الوزير « كلهم (يقصد الفلاحين) فى جيبى ده، وأنت خليك وراى ياسيدى ولا تسأل، والأكل الطازة العظيم والشرب الفاخر والتحويش فى الزيادة دايما». وفى صورة أخرى نرى إسماعيل واقفا ووزيره

ممسكا بفأس والفلاحين غرقى فى مياه النيل. وواضح أن الصورة رمز للسخرة الملعونة. وفى صورة ثالثة نرى إسماعيل يتقدم حاشيته وفى يده مسدس مصوب إلى جمع من الفلاحين تجمهر على باب قصره، وهم يقولون: «يحق لك يافرعون تشرب مُدام (خمر)، وتعمل ولايم وتصطاد حمام، ولا تعطى للفلاح الجعان اللى على باب سرايتك يطلب الإحسان، إنما ربنا أحباله طوال، برضها مصر فيها رجال».

ومن الصور الساخرة صورة يبيع فيها إسماعيل الأهرام، وواضح أنها ترمز إلى تفريط إسماعيل فى حقوق بلاده، وأنه لم يبق فيها على شىء لم يبعه للأجانب، وأنه بصدد أن يبيع الأهرام. حتى الأهرام وأحجارها يريد أن يخرجها من بلاده.

وبجانب هذه الصور تكتب الصحيفة المقالات والمحاورات التمثيلية التى تنتقد سياسة إسماعيل أو فرعون مصر كما تلقبه، وهى تسوق فى أحاديثها عنه تأنيبا وتعنيفا شديدا له. ولا نرتاب فى أن هذه الصحيفة الهزلية تعطى صورة صادقة لإسماعيل وحكمه، وهى أصدق من كثير مما كتب عنه فى كتب التاريخ!

ونجد يعقوب صنوع فى أعدادها التى صدرت بمصر يصور ما كان عليه الفلاحون من بؤس، وكيف كان يشتط إسماعيل وأعوانه فى جمع الضرائب، وهو يسوق ذلك فى شكل محاورات تمثيلية

بين هؤلاء الفلاحين وأعوان إسماعيل من الترك الذين كانوا يحكمون الشعب حكما جائرا ظالما . ويزعم أنها محاورات تاريخية حصلت فى أيام العز سنة ١٢٠٤ للهجرة حتى يحتاط لنفسه، ويعنونها بعناوين ساخرة من مثل القرداتى ، أو حكم قراقوش . وجعل شخوص محاورة : السنجق ظالم أو غلو، وطرطور أغا القواص ، وأبو نفوسة شيخ البلد، ويدور الحوار على العوايد والضرائب والأموال والسخرة . ويجرى على لسان أبى نفوسة احتجاجا على السنجق وما يطلبه من الضرائب الباهظة، إذ يقول له : «هو انتو خليتوا فى البئر بكرة أو سلبة، والتور، وحياة السنجق، بعناه بربع الثمن. بجا أجيب من الهوا المحابيب (ألفلوس) للعوايد، والدواهى الحارة دى كلها اللى خربتنا وجفلت ديارنا وفضحتنا على آخر الزمن» . وعلى هذا النحو لا يزال يعقوب صنوع يصف المظالم التى كانت ترهق كاهل الشعب وتجثم على صدره بأثقالها لعهد إسماعيل .

وأغلقت صحيفته - كما أسلفنا - فى سنة ١٨٧٨ ونفى من مصر، فتوجه إلى باريس، وهناك أخذ يصدر صحيفته ويرسلها- كما مرّ بنا - إلى مصر بأسماء مستعارة، حتى يمكن دخولها إلى البلاد. وقد كفى مئونة الحيطة والحذر من إسماعيل وبطشه وبطش أعوانه، فتحول يكويه ويشويه بسياطه فى صراحة مرة وسخرية لاذعة على نحو ما نجد فى هذه المحاورة التى أجراها

فى أول عدد نشره هناك، وهى تدور بين شيخ الحارة (الخديوى اسماعيل) وأبى نظارة وأبى القلب «الفلاح المصرى» وفيها يقول:

شيخ الحارة – التوبة من دى النوبة، اشفق يابو نظارة، على عمك شيخ الحارة. جريدتك ضربها قاسى، أخاف منها على راسى. دى حطت فى قلبى الرعبة، بأقوالها المخيفة الصعبة. إذا رفعت عنى الجريدة، أرجع لطرايقى الحميدة.

أبو نظارة – أنت عمرك ما تتوب، ولو رجموك بالطوب. دا أنت أمرك عند الجميع معلوم، بقى كيف أشفق عليك يامشوم، والله ما أرحمك، يامطعم الناس للسمك، ياخبيث يامسموم الريق، ياقاتل الصديق.

أبو القلب – ما تشفجش يابو نظارة، الشفجة فى الفاجر ده خسارة، ده قتلنا من الظلم والجور، ونازل علينا زى ما ينزل السواق على التور. داهيه تلمه، وتعتقنا من ظلمه.

ومعروف أن أحوال مصر كانت تتطور فى تلك الايام من سيىء إلى أسوأ فقد قضى إسماعيل بتبذيره على ماليتها الغنية وأنقض ظهرها بديونه التى بلغت بهوسه وجنونه أكثر من مائة مليون جنيه، وتدخلت فرنسا وإنجلترا فى شئونه، وأكرهتاه على أن يعهد رئيس وزرائه الأرمنى نوبار (باشا) إلى ولسن الانجليزى بوزارة المالية وإلى دى بلينير الفرنسى بوزارة الأشغال. ورضخ إسماعيل، وأخذ

يرهق المصريين من أمرهم عسرا بالضرائب الفادحة. ونرى يعقوب صنوع يصور بؤس الفلاحين إزاء هذه الضرائب وما وقع عليهم وعلى البلاد فى هذا العهد المظلم فى محاورة تخيلها قد وقعت فى مجلس الأعيان المصرى (الذى كان قد أنشىء حين ذاك) وهى تجرى على هذه الصورة:

رئيس المجلس - سعادة ناظر (وزير) المالية أرسل لنا إفادة رسمية، باللغة الإنجليزية، لأجل الضرائب الميرية، لسداد الديون المصرية، وتحصيل الأموال المتأخرة لغاية ثمانية وسبعين أفرنجية، ودفع المتأخر من الماهية (كانت الحكومة قد توقفت عن دفع رواتب الموظفين وضاعفت الضريبة السنوية المفروضة على الفلاحين). والذى يتأخر عن السداد بالطريقة الحِبِّية، يعامل بالقوة الجبرية، وتباع أطيانه وموجوداته بمعرفة المديرية، وأفندينا (إسماعيل) قرّ على هذه القضية، فكل منكم يبدى رأيه بالحرية، ولا تخافوا من شيء بالكلية.

الشيخ عبد العال (عمدة إحدى القرى) - إن كانت المادة نفاق، فاحنا نقر بالوفاق، وإن كانت حُرِّية، نبدى أفكارنا القلبية.

الرئيس - شوف ياشيخ عبد العال، أنا لا أعرف النضال ولا المحال، وأنا أحب الحرية فتكلم بخلوص نية، وسلامة طوية.

الشيخ عبد العال - المادة مش حاوجة مداولة، ولا كثرة محاورة إحنا قبلنا كل النوائب اللى مرت علينا مع جميع المصائب، وبعنا

ما ورانا وقدامنا ، ولا بقاش حاجة أمامنا ، ده إحنا ضاع عشمنا فى سى فلسن (وزير المالية الإنجليزى فى وزارة نوبار) والجماعة الأورباوية ، وربنا يغنينا بفرجه العميم ، ويولى علينا رجل كريم حليم، ويعتقنا من جور شيخ الحارة (إسماعيل) اللعين اللى سخمط وش الحمارة طين ، وأنا ، وحياة راسك مافيش فى دارى ولا كيلة غلة ، ولا جاموسة ولا عجلة ، ولا قرص جلة . فيكفانا ظلم وخسائر ، والله أعلم بما فى الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر .

الرئيس - وأنت قولك أيه يا شيخ محمد ؟

الشيخ محمد (أحد العمد) - إحنا لا نعرف مدير مالية ، ولا ناظر خارجية ، دول ناس ملاعين يرطنوا بلسانهم الأعوج وهم لابسين بتوع طوال اسمها برانيط ، ويدردعوا (يشربوا) نبيذ كثير ، ويتغدوا بلحم الخنزير ، أما إحنا ناس هوارة ، نعرف طيب فى تربية الفرس والحمارة ، واعرف سعادتك أننا مانقبلش زيادة ضرائب ولا كثرة مصائب ، وعاوزين نخفف المربوط ، ولا نسأل عن فلسن ولا مربوط ، وأن انفلق شيخ الحارة ، ما ندفع ولا باره . وإلا إن كان القصد بحضورنا الآن الضحك علينا زى زمان ، فإحنا وحْلانين ، وعن ذاتكم مستغنيين . وإن كنتم عاوزين النياشين بتوعكم خذوها ، والفلاحين أهى قدامكم كلوها ، لأن بلدنا ، وحياة راسك ، بعدما كانت حايزه كمال اللطافة ، أصبحت من كثرة الظلم كوم شقافة .

والله يجازى ابن الحرام.

وفى فصل من فصول صنوع الطريفة يصور لنا إسماعيل ساهرا حتى الفجر، يناجى نفسه ،وقد أوشكت السفينة على الغرق وهو مُفْضٍ إلى وساوسه وأوهامه، يسب نفسه ويلعنها ويلعن الأيام التى ساقته إلى ولاية مصر، ونسوق أطرافا من هذه المناجاة:

«راحت عليك يابو السباع، الله يلعن اليوم اللى فيه توليت شيخ حارة، ده كان يوم نحس، وأنا كان مالى ومال الشبكة دى اللى زى الطين، المكتوب على الجبين لازم تراه العيون، نعمل إيه فى طمع الدنيا؟ أدينى صبحت أشقى مخلوقات الله والخوف قاتلنى: مائتين عسكرى ومدفعين حول سرايتى، وبرضه مرعوب وكل ما اسمع حد جاى علىّ، انفزع وقلبى يطب، وأقول فى نفسى: آهم ضباط الجهادية وتلامذة المدارس وأولاد البلد والفلاحين جايين ينتقموا منى ويقبضوا روحى ويأخذوا مفاتيح السهاريج وينهبوا الأموال اللى لميتها بغاية التعب والمشقة. بلا هلس، ده أنا سيدهم فى المكر ولا أخاف من ملك الشياطين. أما الجماعة مستحلفين لى بحتة علقة صَنْعة. ما يطلعش من إيدهم حاجة، البصاصين كتير ومأمور الضبطية جدع. أما أبو نظارة اللعين راح جدد له جرنال ثانى، وقال إنه فى حب الوطن. آهو زى الكلب اللى ينبح، خليه يعوى. آه يا إسماعيل أنت بتسلى غلبك وهمك بالكلام ده، إنما قلبك بيرجف وضميرك فى قلق، أهو الليل بيفوت بطوله، وعينك

ما بتدوق النوم. آدينى سامع تشخير الأغاوات، يابختهم دول مبسوطين ولا هم عارفين الدنيا بتعمل بهم إيه، والناس اللى ما تفهمش الصورة إيه تقول عليهم دول مساكين لكونهم محرومين من لذات الدنيا، آه يامغفلين والله ما أحد محروم غيرى أنا لكونى ما بستلذ لا بأكل ولا بشرب من خوفى أن خداميني يسمّونى. ولما أخرج من البيت، كلما أعدى على شارع وأجد فيه زحمة يبان لى يوم القيامة جاء، وأنظر يمين وشمال، ومن لحظة إلى لحظة يتراءى لى أن العالم رايحة تهجم على عربيتى وتهلكنى. آه من عيشتى، ما أمرها، والعمل إيه؟ الشيطان يدبرنى ...»

وواضح ما فى هذا الفصل من تهكم على إسماعيل وما يوحى إليه شيطانه، فهو قلق يائس قد قطع الرجاء، ومع ذلك لا يزال يمنيه خنّاسه الأمانى، وقد أحس فى عمق غضبَ الشعب عليه وأنه يكاد يطير به طيرة بطيئا سقوطها، ويملأه الرعب والقلق والخوف، حتى من طعامه وشرابه، ولا يغدو أو يروح فى القاهرة إلا ويرى الموت نصب عينيه، فالمصريون متربصون له ولابد أن ينقضّوا عليه ويفتكوا به فتكا ذريعا. وكل ذلك يعرضه يعقوب صنوع فى أسلوبه الساخر. ونراه فى فصل آخر يدير محاورة بين إسماعيل (شيخ الحارة) وابنه توفيق ومعهما بعض الوزراء يحملون أوراقا وحقائب من ناحية وبين عدد من الموظفين مثل عمر شهامة ومجدع وحدق ومعهم مشايخ الأزهر من ناحية ثانية. وهو فى هذه المحاورة يتخيل

المصريين قد ثاروا بإسماعيل ونفوه عن البلاد، وهى تمضى على هذه الشاكلة:

ضجة تسمع من بعيد، هى ضجة الثائرين وبينهم مشايخ الأزهر يحضون على الثورة، ويقول توفيق: حتى المشايخ ضدنا.

شيخ الحارة (إسماعيل): نعطى لهم جراية (خبزا) يسكتوا!

وتصل طلائع الثورة ويسلّ «مجدع» سيفه، وقد رأى إسماعيل يهم بالهرب، فيقول له: طالع تجرى على فين؟ ويتناول «حدق» الأوراق والحقائب التى كانت فى يد أعوان إسماعيل، ويعطيها للضباط والتلاميذ.

عمر شهامة لإسماعيل: آه يا خاسر، ياما عملت فينا؟

حدق: لما توليت يا فرعون، القطر ماكانش مديون، واليوم عليه مائة مليون، والمبالغ دى كلها راحت فين؟

مشايخ الأزهر: بنى بها سرايات، وصرفها فى الفسق والفساد.

عمر شهامة: وبدل ما يساعد الفلاح، ويصلح أحوال الزراعة اللى هى سعادة أهالى القطر، فرعون بسلامته نهبنا وباع أطياننا ومواشينا، وموتنا من الجوع.

مشايخ الأزهر: فرعون كافر وآخرته الجحيم، وربنا كريم حليم.

أبو الخير (إلى الضباط): نسلمكم شيخ الحارة وأولاده ووزيره، اذهبوا بهم إلى الإسكندرية وأنت يا مجدع (باشا) سلمهم

إلى قبطان المركب العثمانية، وهو يجرى اللازم.

وينفذ ذلك الضباط، ويضربون كل من يجرؤ على المعارضة. ويزعق شيخ الحارة: الحارة حارتى وأناشيخها، وأنتم مالكم ومالى.

مشايخ الأزهر: جرجروه، ما تسمعوش كلامه. ويغنى الجميع:

انت فين يابو نظاره تيجى تشوفنا منصورين
على عمك شيخ الحاره وعلى أولاده المنحوسين
النهارده يوم عظيم افرحوا يا أهل النيل

هذه صور ساخرة من المحاورات والمقالات التى كان يكتبها يعقوب صنوع فى مجلته «أبو نظارة» وهى تدل دلالة واضحة على براعته براعة منقطعة النظير، فى التهكم واللذع السياسى وما يحمل من سهام مصمية. وكان كثيرا ما يضيف إلى هذه المقالات والمحاورات أشعارا عامية يصور فيها أطرافا من المهزلة السياسية التى كانت تمثّل حينئذ أمام الشعب كله وفوق أرضه. وقد ينطق إسماعيل بهذه الأشعار، يصف سوء حاله ووبال أمره من مثل قوله:

إيه دى العباره المتعوسه صبحت دوايرى معكوسه
والحسرة فىَّ مغروسه دى وقعتى وقعة خرفان
شُرمْ برم حالى غلبان

ما اعرفش إيه من دا الطالع مقصـــودهم أبقى خـالـــع
واطلع كده منفّض قالـع ياعلى لمـا أصبح عـريان
شرم برم حالى غلبان

وجابوا لى عمى الشيخ نوبار وعـملوه رئـيس الكـبـــار
يحمرّ لى عينه زى النار وأنا قاعد قصاده جَرْبان
شرم برم حالى غلبان

ومازال صنّوع يرمى إسماعيل بصوائب سهامه الشعرية والنثرية، حتى انكشفت غمة حكمه عن صدر مصر، وخُلع سنة ١٨٧٩م . وحمل من بعده على ابنه توفيق وهوسه وحمقه . ولما نشبت ثورة عرابى وتطورت الظروف واحتل الإنجليز مصر ظل يصوِّب إليهم وإلى توفيق حرابا مسمومة من أعداد صحيفته، يضمنها سخريته اللاذعة وتهكمه المرير . وكان يتخذ هذه الحراب غالبا من الشعر العامى على نحو ما نرى فى قوله:

مســتر تــوفيق ابن إسمــاعيـل
مــالــه رفـيـق فى وادى النيـل
النـاس سـابوه لكــونـه خــان
مـصــر واخــوه حـتى الـسـلطان
بــاع لــلأجنبى كـل الأصحـاب
أهـبــل وغـبـى غشـاش كـذاب

في مصر رجال يخلصوهم
من الأندال اللي باعوهم

وواضح مما قدمنا عن يعقوب صنوع أنه كان يتقن النقد السياسي الساخر إتقانا رائعا، وقد استطاع أن يخرجه في صور متعددة من الرسم الكاريكاتوري ومن المقالات والمحاورات التمثيلية والشعر. وهو يعد في ذلك كله نادرة من نوادر زمانه.

التنكيت والتبكيت

هي أول صحيفة أخرجها عبد الله نديم، وكان ذلك سنة ١٨٨١ م وكانت وجهته فيها خلقية اجتماعية. وهو فيها يكتب تارة باللغة الفصيحة وتارة بالعامية. وهذا نموذج من تنكيته وتبكيته وضع له هذا العنوان: عربي تفرنج. قال:

«وُلد لأحد الفلاحين ولد، فسماه زعيط، وتركه يلعب في التراب، وينام في الوحل، حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة، فسرحه مع البهائم إلى الغيط، يسوق الساقية ويحوِّل الماء، وكان يعطيه كل يوم أربعة جندولات (أرغفة) وأربعة أمخاخ بصل. وفي العيد كان يقدم له «اليخني» ليمتعه بأكل اللحم والبصل. وبينما هو يسوق الساقية وأبوه جالس عنده مر بهما أحد التجار فقال لأبيه: «لو أرسلت ابنك إلى المدرسة لتعلَّم وصار إنسانا» فأخذه وسلمه

إلى المدرسة. فلما أتم العلوم الابتدائية أرسلته الحكومة إلى أوربا لتعلم فن عينته له، فبعد أربع سنين ركب الوابور، وجاء عائدا إلى بلاده. فمن فرح أبيه حضر إلى الإسكندرية. ووقف برصيف الجمرك ينتظره، فلما خرج من الفلوكة، قرب أبوه ليحتضنه ويقبله، شأن الوالد المحب لولده، فدفعه فى صدره، وجرى بينهما هذا الحوار :

زعيط : سبحان الله! عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دى قبيحة جدا.

معيط (أبوه): إمَّال يا بنى نسلم على بعض إزاى.

زعيط : قل بون أريفى (Bonne arrivée) وحط إيدك فى إيدى مرة واحدة، وخلاص!

معيط : لهو يا بنى أنا باقول منيش ريفى.

زعيط : موش ريفى يا شيخ أنتم يا أبناء العرب زى البهايم.

معيط : الله يسترك يا زعيط! والله جا خيرك. يا ابنى فوت روح فوت. فلما وصل به إلى الكفر (القرية) قامت أمه وعملت له طاجنا فى الفرن مملوءا لحما ببصل، فلما رآه قال لها: ليه كترت من الـ.

معيكه (أمه): من ال إيه يا زعيط؟

زعيط : من البتاع اللى اسمه إيه.

معيكه : اسمه يا بنى الفلفل.

زعيط : نو ، نو ، ال ده ، ال بتاع اللى ينزرع.
معيكه : الغلة يا ابنى.
زعيط : نو ، نو ، ده اللى يبقى لو راس فى الأرض.
معيكه : والله يا ابنى ما فيه ريحة التوم.
زعيط : البتاع اللى يدمع العينين ، اسمه «أونيون».
معيكه : والله يا ابنى ما فيه أونيون ، دا لحم ببصل.
زعيط : سى ، سا ، بصل بصل.
معيكه : ويا زعيط يا ابنى نسيت البصل ، وانت كان أكلك كله منه.

وهذه صورة بارعة لعبد الله نديم فى السخرية ممن يتعلمون ويسافرون إلى أوربا ويعودون فيبرأون من بلادهم وأسرهم وأوطانهم ، لأنهم أصبحوا عبيدا للغرب وكل ما هو غربى ، فلا يجلون ولا يحترمون إلا ما شاهدوه لدى القوم ، بينما يهزأون بكل ما هو شرقى ووطنى ناسين حقوق بلادهم وأهليهم.

ومن أمثلة نقده الاجتماعى ما كتبه تحت عنوان : محتاج جاهل فى يد محتال طامع ، وهو يجرى على هذا النمط :

احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه ، فقصد أحد التجار الأجانب ، وطلب منه المبلغ ، فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور أحد النبهاء :

الزارع : عاوز مائة جنيه بالفرط (بالربح) يا سيدى.

التاجر : فرط المائة عشرين كل سنة.

الزارع : اعمل اللى تعمله.

التاجر : شيل عشرين من مائة يبقى كام.

الزارع : لهو أنا كاتب، شوف يفضل كام.

التاجر : يبقى سبعين.

الزارع : يادوب كده.

التاجر : دى الوقت صار لى مائة جنيه ضم عليهم عشرين واكتب الكمبيالة.

الزارع : اكتب وخد الختم أهو.

وفى وسط السنة قدم له الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة أرادب من السمسم وعشرين من القمح وثلاثين من الفول وأربعين من الشعير، وجاء يحاسبه، فكانت الحكاية هكذا:

الزارع : طلع لى ورقة بالحساب ياسيدى.

التاجر : انت جبت قطن بعشرين جنيه، وقمح بعشرة جنيه وسمسم بثمانية جنيه وفول بعشرين جنيه وشعير بعشرة جنيه، يبقى الجميع كام؟

الزارع : ما قلت لك من ديك المرة ما اعرفش الحساب.

التاجر : يبقى أربعين جنيه، شيلهم من مائة وعشرين يبقى الباقى كام؟

الزارع : مين يعرف؟ شيء كتير.

التاجر : الباقى تسعين جنيه ، وفرطهم عليهم عشرين ، يبقى مائة وخمسة عشر طالب انت كام؟ تلاتين ، يبقى مائة وستين ضم عليهم أربعين فرط (ربح) تبقى الكمبيالة تنكتب بمائتين وعشرة ونصف .

الزارع : هو ايه؟! مش الأصل سبع عشرات وعشرتين ، وجالهم تلاتين وتلاتين ، شيل منهم تمن البتوعات اللى جبتهم يبقى لك دى الوقت مائتين وعشرة بس ، والنص جبته منين؟

التاجر : النص أجرة كتابتى ، ليس من الأرباح .

الزارع : أيوه دى الوقت صحت الحسبة . السنة دى أبيع لك خمسين فدان فى عشرة جنيه يبقى لك أد إيه بعد كده؟ يا جنيهين يا تلاتة ، خد لك بهم جاموسة ، وتبقى على رأى المثل : شيل ده على ده يستريح ده من ده .

وهذه الحكاية كسابقتها فيها مبالغة مسرفة ، ولكننا نحصل منها على صورة مقاربة كاريكاتورية أو مضحكة ، إذ كان النديم يعرف كيف يكبر العيب الخلقى أو الاجتماعى تكبيرا لا نلم به حتى يغلبنا الضحك لما عرض فيه العيب من استطالة وتشويه .

الأســـتاذ

أخرج عبد الله نديم هذه الصحيفة سنة ١٨٩٢ وقسمها بين

الفصحى والعامية ، يكتب فيها المقالات السياسية ، كما يكتب حوارا عاميا بين شخصين من الشعب أو أكثر يعرض فيه لجانب خلقى أو اجتماعى بالنقد يكسوه هذه الحلة الفكاهية التى مرن عليها فى التنكيت والتبكيت.

وفى كل جانب من الصحيفة نجده يعيب الانسياق الشديد نحو أوربا كما يعيب السقوط فى مهاوى الرذيلة. وعنى عناية خاصة بالدعوة ضد الخمر ، وما تجره على صاحبها من ضياع دينه وماله. ومن طريف ما كتبه فيها « صورة عرضحال خامورجية بندر طنطا » وفيه يقول على لسانهم :

« إننا كنا أكثر الناس فى الليل جنودًا ، ومعاملة ونقودا ، كانت تأتينا السكارى من عمد ، ومشايخ بلد ، وأرباب الرواتب ، وأصحاب النكت والغرائب ، فيدخلون علينا من كل حَدب ، بغاية الخضوع والأدب ، فيجلسون حيث نأمرهم ، ولا يتكدرون منا ولو ننهرهم ، ويأكلون ويشربون ، ولا يبالون : يربحون أو يخسرون . حتى إذا دبت الخمر فى رءوسهم ، ولعبت بنفوسهم ، قاموا يهتزون وهم السفهاء ، ويرقصون ولا رقص عواهر النساء ، فتارة نضع فى عنق الواحد منهم حبلا ، ونسقيه من كؤوس السخرية ذلا ، ونأمره ولا مائة مرة بالقيام والقعود ، وهو يضحك ويلعب كأنه ، ولا تشبيه ، من بعض القرود ، وتارة نصفعه على قفاه باليد أو بالنعال ، وهو يقدم لنا واجب الشكر الصحيح على تلك الفعال .

ثم نفتح لهذا الخبيث، باب الحديث، فيحدثنا حتى عن أهل بيته، وحيه وميته، ويقر لنا بكل ذنوبه، وجميع عيوبه. وبعد الحديث والخلاعة، نسلب منه النقود والساعة، وربما نعطيه كمبيالات فيختمها أو يمضيها، وهو لا يدرى ما فيها. ثم نرميه خارج الباب، كأنه من بعض الكلاب، فيتمدد كالميت فى الرحبة، وربما كسرته عربة، وتارة يبيت فى الضبطية، ويغرم النقدية. ومع ذلك لا يهوله ما جرى فى الليلة الماضية، بل يبادر إلينا فى الليلة الآتية، وربما جر إلينا أصحابه، وخواصه وأحبابه، ونحن لا نعدّ ذلك منه جميلا، بل نسقيه معهم كأسا وبيلا. وكم لعبت الخمر بعقول، وأتت إلينا بفحول، نسقيهم السموم المقطعة للكبود، ونأخذ منهم معظم النقود. هذا ونحن نبعث المراسيل لاستحضار البراميل، حتى صار عند أقل عنتيل، زهاء ألف برميل».

وما يزال النديم يلقى نصائحه الخلقية والاجتماعية بمثل هذه الصور الفكهة، وكان بارعا فى تلمس العيوب والأخطاء وحَشْد جوانب التشويه فيها على قرائه وكأنما كان فى يده بوق فكاهى ينفخ فيه.

وكان اتخاذه للعامية سبيلا إلى أن ينشر فى مجلته كثيرا من الأزجال، تارة ينظمها بنفسه وتارة ينظمها بعض قرائه أو بعض الأدباء، ممن يعجبهم نقده وما يمسح عليه بالضحك الخفيف،

فيتابعونه فى طريقته، ويكتبون له أزجالا تحتوى على شئ من التهكم بمن يشذون على المجتمع فى عادة أو خلق، وينشر لهم أزجالهم كهذا الزجل الذى نشره لطالب أزهرى، يسخر فيه ممن يتعلمون اللغات الأجنبية ويتشدقون بها فى أحاديثهم، وهو يطَّرد فى هذا السياق :

الشمس طلعت صح النوم	والساعة بالعربى عشره
والله عجب ياجِيل اليوم	ياللى على سنجة عشره
حقا الزمن ده زمن عايب	يصبح السيد مملوك
والندل دائمًا فيه غالب	والحر ضاع جنب الصعلوك
« بونوسوار » صارت بالكوم	أما السلام أجره على الله
وعمتك « جدنايت » اليوم	سمى وحَفض باسم الله
الوقت ده وقت « البردون »	وادى « البرول » لحقه فى كعبه
وخدلى بالك كلمة « جون »	وابن الحرام حسبه ربه
صعبان علىّ جِيل اليوم	خسر وأحواله تحسر
ولعدش ينفع كتر اللوم	لكن نقول كله مقدر
تلقى الولد تم السبعه	وع « الفرير » قبل الكتاب
وبعد ما يتم التسعه	مقدرش اقولّك قلبه داب
سنة ف سنة يكبر دى الواد	مع الشهادة السنويه
ومره عن مره يزداد	ويتحن فى البكالوريه
ويروح بها مطرح مايريد	ودحنا عارفين آخرتها

ويدور ويفهم أنه السيد ... مـا يفتكـرش عـاقبتهـا
تبص فى السكه تشوفه ... مسبسب القصة وعاوج
زى القمر وقت كسوفه ... أكمن جيبه صبح رايج
إن كان مرادك تنده له ... لابد ما تقوله « منشير »
وتشد حيلك وتقف له ... وتعظمه وتديه « سفنير »
ويسير مع اخوانه « ألمود » ... وادى الغرور تالف عقله
ويقول لنفسه أنا « فرجود » ... ومين هناك حد يسأله
متشوفشى منه غير أوهام ... الا الشيطان فيه متعشم
ويعيش كده كل الأيام ... ويظن أنه متعلم

* * *

ياواد بقى فُضّك من دول ... والتفت شوف إيه بكره
والقلب صار منك معلول ... وانت مفيش عندك فكره
سايس أمورك بزياده ... يكفاك مساخر « لكسمبرج »
و« الألدورادو » صار عاده ... هو انت طار من عقلك برج
دوّر على نفسك تلقاك ... مفيش كده أبدا غفله
الصبح عندك زى مساك ... وكل شىء منك نفله
وفوق يا شيخ من دى السكره ... وانظر لحال مسقط راسك
وشد عن ساعد الفكره ... بكل قلبك وحواسك
تركت لغتك بالمره ... وقلت حالها مش ماشى
ورحت تجرى بلاد بره ... وقلت بلدى ممنهاشى

هى بلادك دى شويّه | اللى الدول تتمناها
فيها العلوم مستوفيّه | وبس فتش تلقاها
طاوع وتوب عن دى الدوره | وانظر لمصلحة الأوطان
واترك لنا لعب الكوره | حب الوطن ده من الإيمان

وبذلك كانت مجلة الأستاذ معرضا لروح النديم الفكهة وروح قرائه. ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا عيبا خلقيا ولا فسادا اجتماعيا إلا قطّروه تقطيرا هزليا فى أزجالهم ومقالاتهم وكل ما يكتبون.

الأرغول

اختصت هذه المجلة بالأزجال، وكان يخرجها شيخ الزجالين فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن، ونقصد الشيخ محمد النجار، وهو من علماء الأزهر، وكان خفيف الروح خفة شديدة لا تقل عن خفة روح بيرم التونسى فى عصرنا. ويعد خير من أنجبته مصر حتى عصره فى هذا الفن، وكان له مجلس حافل فى مقهى « جراسمو » بجوار « متاتيا » يحضره كبار الزجالين فى أيامه من أمثال إمام العبد وخليل نظير وعزت صقر. وعلى يديه تخرج غير زجال.

ويغلب على أزجاله النقد الخلقى والاجتماعى، وهو صورة

مكبرة من عبد الله نديم ولكن فى شكل أزجال خالصة . ومن نقده الخلقى قوله فى شكوى الزمان :

أشكى لمين غدر الأيام ؟ وأروح لمين صاحب نخوه
وإن قلت يوم خطوه لقدام أرجع ورا ألفين خطوه

دور

أبص ألقى دا راكب حمار وعامل لى عمده
ودا محزق فى روحه قوى وهو حتة جلده
واللى يشوفو كان مردى مشى بقواسه وعده
واللى الفشل كاده اعوام صبح غنى وصاحب عزوه

وكانت عينه يقظة فقلما يفلت منه جانب من جوانب عصره يستحق السخرية أو التقريع أو الهزل والفكاهة إلا استغله فى زجله ، من ذلك ما كان من أول خروج النساء للطرق ، وسفورهن ، وكان ذلك يعد شذوذا فى عصره ، فسجله فى هذا الزجل :

دوّر يا جوز الدوّاره تلقاها سارحه فى الحاره

دور

جوزك ياخاله فى حاله اتبدّل قمحه بنخاله
مش عايز تبقى دلاله صنعه خلت عقله اتلخبط

دور

عايز تستنى فى بيته راضية له بفوله وبزيته

يــا مصيبتى دانــا ربيتــه	على شانه بخرج واشحطط

دور

يا حرمه مش عاوز منك	تتمسى ليله عن خُنُّــك
ميت مره يروح يسأل عنك	لا ف سلقط بنتى ولا ملقط

دور

يوم تخرج من بيتها الحرمه	تـركبها بخـروجها حـرمه
والراجل إن كان له حرمه	يمنعهـا والبيت له أضبط

دور

الراجل إن كان فيه حنكه	مـا يخليش لمراتـه خرجـه
لكن نسوان « آلافرانكه »	دول بِشْقة ومين فيهم يشبط

دور

إن سمعت فى مرّه بمولد	تندب لى وتعمل لى مولد
لـو كـانت حبله وبتـولـد	تخرج فى يومها وتتخطّط

دور

تخــرج ومحنيـه ايــديهــا	وتبــين سيقــان رجليهــا
وتحب الــراجـل بعنيهــا	وان شافته تفرح وتقطقط

دور

أد انت على الحال دا راسى	خليتها ليه تخرج يا« سى »
أنا بدى تفضل فوق راسى	تحكم فى بيتهــا وتشــرط

وله زجل سماه زجل « المودة » تهكم فيه على من يتهافتون على البدعة مقلدين للأوربيين ناسين لدينهم وأخلاقهم وعاداتهم، وفيه يقول :

يا موضه يا جيل الوِز يا جِنيَّه من غير بِز
يا موضه جِيلك معروض فات السنّه والمفروض
يبقى صغار لسه ومقروض ويروح يسكر آل ويعزّ

دور

يا موضه يا جِيل الوِزْ يا جِنيَّه من غير بِز
الجامع يوم الجمعه فاضى والخماره جامعه
والغيبه فى سهره وسمعه تدبح فى الرقبه وتحز

دور

يا موضه يا جيل الوز يا جِنيَّه من غير بز
تقليدك للغير ياخَيّه جاب رجلك بعدين فى الخيَّه
وغرقت فى شِبْرين ميَّه ووقعت فى دين بيحزّ

وعلى هذا النحو كان الشيخ النجار يُغَنى فى أرغوله وأزجاله بنقد اجتماعى لاذع. وكان له مجلس حافل - كما أسلفنا - فى مقهى « جراسمو » بجوار حديقة الأزبكية، وقد تخرج على يده أكثر الزجالين الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن العشرين.

مجلات هزلية كثيرة

ونستقبل منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن مجلات هزلية كثيرة مثل « حمارة منيتي » وهي مجلة سياسية فكاهية أخرجها محمد توفيق سنة ١٩٠٠ وكان ضابطا في الجيش ومن رفقة الشيخ النجار ، فلما أحيل إلى المعاش أخرج هذه المجلة .

ونرى دائما على الصفحة الأولى تحت عنوانها هذين البيتين :

ياَمحْلَى الجِدّ لما يكون فى قالب	هزار يبقى الكلام موزون ورايق
يغور الجد لو كنت انت غايب	ياعم الشيخ هزار وأنت اللى فايق

ومنذ العدد الأول نجد محمد توفيق يعرض لعباس الثانى والشخصيات السياسية الكبرى بغمز لا يوارى فيه . وحدث أن سافر عباس إلى إنجلترا ليتقرب من المحتلين فلمزه لمزا كثيرا . من ذلك مقالة بعنوان : « رقوة بهايم وقلب هايم بس العزايم ماهاش وجود » . وتحت هذا العنوان كتب :

« يابركة عاشورا ، فوق وش الفطورا ، بالجوز وبالطورا ، ياعم يابو قورة ، سلّك لنا الماسورة ، للأمة تنسطل ، من قبل ما تنهطل ، ع الأخ العزيز ، اللى بيحسبنا معيز ، ويفوتنا فى مهاميز ، ويروح بلاد الإنجليز ، واحنا واكلين بهريز ، والواحد مش

واخد ، م الدنيا دى حاجة ، غير لطم الخواجة ، أسيادنا النظار (الوزراء) قايدين فيها راكية نار ، دايمًا ليل ونهار ، ياسند العواجز ، يامجوهر ياحمص ، خايف بطنى تمغص » .

ويكفى أن نقرأ لمحمد توفيق هذه العناوين لنعرف ماذا كانت تحوى مجلته : « الرحلة البلدية فى موتة مصر بلا دية » « سلموا للقط مفتاح الكرار » « ياما دقَّت على الرأس طبول » « ياسعادة الحيوان وياشقاوة الإنسان فى حكومة هذا الزمان » « تبديد صاحب الرمة فى أموال الأمة » « كل واحد يأخذ دوره وجحا أولى بلحم ثوره » ويتحدث تحت العنوان الأخير عن أفراد الأسرة الخديوية وأنهم يتقاضون أكثر من ثلاثمائة ألف جنيه فى السنة ينفقونها فى ملاهى باريس ومجتمعات لوندرة وجبال سويسرا وأولى أن تنفق هذه الأموال فى تخفيف الضرائب عن كاهل المصريين ومساعدة فقرائهم وإصلاح البلاد . وفى وصف هذه الحمارة البارعة فى النقد السياسى يقول بعض قرائها المعجبين بها :

حماره ليست لمن يركب   تَضْرب بالنعل ولا تُضْرب
ترى بلادا باعها أهلها   وتسكب الدمع الذى يسكب

مجلة خيال الظل

وأخرج أحمد حافظ عوض بجانب هذه الحمارة سنة ١٩٠٧ مجلة

خيال الظل ، وعُنِى فيها بالتصوير الكاريكاتورى ، ولكنه يدنو درجات دون تصوير صنوع فى « أبو نظارة » فليس فيه روحه ولا لذعه . وتقوم المجلة فى أكثرها على مهاجمة الحزب الوطنى ، وتشيع فيها النكتة والروح المرحة والعبارات والصور التى تخز وخز الأبر . من ذلك « حديث الاغتصاب بين حمار وحصان » . يقول الحمار : لو كانوا الحمارة يعتصبوا زَىّ العربجية كنا على الأقل نستريح كام يوم » ويرد الحصان : ياحسرة ! دول ما بيكملوش يوم .

ومن الصور اللاذعة صورة تمثل زفة تودع اللورد كرومر حين تركه للديار المصرية ونرى فى الزفة مصطفى فهمى رئيس الوزراء ، وتحت الصورة يقول مصطفى فهمى للورد كرومر : « فايتنا لمين ياسندى ! » وصورة أخرى يودع فيها مصطفى فهمى اللورد كرومر على القطار ويعزيه اللورد قائلا : « معلهش يابو درويش شد حيلك !

وواضح أن هذه الصحيفة مثل سابقتها كانت تغلب عليها العامية .

مجلة السيف

وخرجت بعدها بقليل مجلة السيف لحسين على وأحمد عباس ، وتغلب عليها روح الصحيفة المعاصرة المسماة بالبعكوكة ، وتدور

فكاهاتها على القفش من مثل قالوا لصاحب جريدة مصر : « صحيح ما فيش فى رأسك ولا شعرة » قال : « لأ عندى شعرة » . ولما هجم العثمانيون على الإيطاليين فى حرب طرابلس كثرت الفكاهات فى هذا الصدد ، فمن ذلك : « عندما هجم الجيش العثمانى قال الطلاينة : « أشهد أن لا اله الا اللّه وأن محمداً رسول اللّه » ، ولما اشتدت الحرب وكثرت انتصارات إيطاليا وفتكها بإخواننا الطرابلسيين كتب هذا التعليق « تشكو مصلحة التلغرافات من تلغرافات روما لأنها بتخرّ دم » .

وكان فى السيف باب عنوانه « الدلع » كله قفش ، وباب آخر عنوانه « قولوا له » مثل :

قولوا لسنجر : « ماكينات ولاّ غزل البنات » .

قولوا للأسطول الطليانى : « تعاود تجى البر » .

قولوا للترمواى : « مالك حايس ودايس »

وكمان قولوا له : « اطلع ياقاتل »

وكمان قولوا له : « اللى تعرف ديته اقتله » .

وكمان قولوا له : « ناس تنباس وناس تنداس » .

قولوا للأسطول الطليانى : « جك غرقة » .

وبجانب هذا الباب نجد بابا ثالثا بعنوان يصح ، ويتضمن الباب كثيرا من النقد الاجتماعى مثل :

يصح أنه يبقى صعيدى ولون الطحينة ويلبس برنيطة .

يصح أن الأفندى من دول يفتح قزايز بيرة فى قهاوى الرقص ولبة بيته من غير قزازة .

يصح يبقى شامى عكاوى ويقول عندى رنديفو .

وقد عادت هذه المجلة بعد اختفائها باسم السيف والمسامير ، واستمرت فى هذا النقد السياسى والاجتماعى .

مجلة الفكاهة

كان رواج المجلات الفكهة دافعا لأصحاب دار الهلال على إخراج مجلة الفكاهة سنة ١٩٢٦ ، وظلت تصدر نحو ثمانى سنوات حتى تحولت إلى مجلة الاثنين التى تجمع بين الجد والفكاهة ، ولقيت مجلة الفكاهة أيام صدورها رواجا منقطع النظير ، وكان يرأس تحريرها حسين شفيق المصرى محرر دائرة المعارف الوفدية فى الكشكول ، وكان مطبوعا على النادرة ولا يكاد يتحدث جادا . وقد ابتكر صورا مختلفة للفكاهة فى مجلته ، فمن ذلك أنه كان يعارض القصائد الجدية المشهورة فى القديم بقصائد هزلية حديثة من وزنها وقافيتها على نحو ما صنع فى معارضته لقصيدة أبى العتاهية المشهورة فى مديح هارون الرشيد والتى يستهلها بقوله :

ألا مـا لسيِّـدتى مـا لهـا   أدلًّا فأحمـل إدْلالهـا

وهو يمضى فى معارضته لها على هذا النحو الفكه :

أظـن « الـوِليَّـة » زعـلانـةً
ومـا كنت أقـصـد إزعـالهـا

أتى رمضـان فقالت هـاتوا لى
زكـيبـةَ نُـقْـلٍ فجِـبْنـا لهـا

ومن قمَـر الدين جِبْت ثـلاث
لـفـائـفَ تُـنْـعـب شيًّـالهـا

وجبتُ صفيحـة سمـن وجبـت
حـوائـج مـا غَيْـرُهـا طـالهـا

فقل لى على إيـهِ بنت الذين
بتشـكى إلى أهـلهـا حـالهـا

تقـول لهم جوزى هـذا فقـير
كـأنى أضـعـت لهـا مـالهـا

ولا والنبى لا أخـاف أبـاهـا
ولا عـمهـا ، لا ، ولا خـالهـا

ولو كانوا ناسا من اللى فى بالى
لمـا سـمـعـوا قط أقـوالهـا

دى جـارتهـا زعًلت زوجهـا
فجـاب العصـايـة وادًى لهـا

وقد عميتْ بعد ما سابها
وشافت من الدنيا أهوالها
فإن عملتْ مثلها زوجتى
فأخصّ عليها وعُقْبى لها
أتدرون ماذا أثار الخِناق
فزلزلت الأرض زلزالها
تريد الذهاب معى للتياترو
وتطلب منىَ إدخالها
وكيف أروح معاها التياترو
وإزاى أقْبَل إرسالها

ومن الشخصيات الفكهة التى ابتكرها شخصية الشاويش شعلان عبد الموجود، وكان يكتب على لسانه محاضر تحقيق على نحو ما نعرف فى أقسام البوليس، ولكنه كان يخرجها فى هذه الصورة المرحة :

« وفى تاريخه أدناه وأعلاه أنا الشاويش شعلان عبد الموجود شاويش. آه يا نارى لو أكون بكشاويش. برضه أنا أحسن من بكشاويش وملاحظ كمان ، وأنا جاعد فى الجسم حضر جدامى عسكرى بوليس طويل عريض، لو يجع على حيط يهزه. وبعد ماأخد لى التعظيم اللازم سعلته (سألته) خبرك آه؟ جال: «يا أفندم أنا أخش الحرب وأرمى روحى فى النار وفى البحر ولا أخافش

من مخلوج ولو كان الجن، لكن أخاف من ربنا جوى ولا أجدرش على غضب ربنا . وحضرة بكشاويش النظام باعتنى فى النجطة اللى جُدّام ديوان المالية ، والنجطة دى يا افندم واجف فيها راجل مسخوط على حجر عالى . والمسخوط ده لو ما ربنا غضبان عليه ما كانش سخطه . وأنا ماجادرش أجف حياله وغضب ربنا نازل عليه يا افندم واللعنة لما بتنزل بتعم والعوذ بالله . فأنا المذكور أدناه يا افندم أعرض لمسامع حضرة سعادة الحكومة أنها تشيلنى وتودينى نجطة غير دى، شاالله فى آخر الدنيا، بس مايكونش فيها مسخوط، وأنا يا افندم مصلى الخمس، وأخاف من غضب الله » .

ومن الأبواب التى عقدها حسين شفيق فى المجلة باب محكمتنا العرفية، وكان ينشر فيها محاكمات مضحكة على نحو ما نرى فى هذه المحاكمة لمدير شركةالترام :

رئيس المحكمة : اسمك ايه ؟

المدير : مدير الترماى

الرئيس : وصنعتك

المدير : بعيد عنك مدير الترماى .

الرئيس : عمرك كم سنة .

المدير : عشرة آلاف قتيل

الرئيس : أنت متهم بإهمال نشأ عنه حوادث دهس كثيرة

المدير : كله بالقضا والقدر

الرئيس : وايه القضا والقدر دول

المدير : يعنى العجلتين اللى فى أول القطار .

الرئيس : فيه شهود كتير بيقولوا إنهم شافوا الترماى بيدهس الناس

المدير : كدابين لو كانوا شافوه كان داسهم.

الرئيس : رجال الإسعاف بيقولوا إن السواقين بيمشوا بسرعة .

المدير : كدابين دول متغاظين عشان بنشغلهم طول النهار.

الرئيس : بتقول أنكم ما بتدهسوش حد، أمال يتشغلوهم فى ايه »

المدير : بنشيِّلهم اللى بينداسوا من تلقاء أنفسهم.

الرئيس : تلقاء أنفسهم يعنى إيه ؟

المدير : يعنى الفرامل الخسرانة .

وباب آخر كان يعلق فيه على الحوادث التى تذكرها بعض الصحف اليومية هذا التعليق المضحك :

« ذكرت جريدة الأهرام أن (وردية) من عسكرى وخفيرين قابلتْ صيادا فى أثناء مرورها للمحافظة على الأمن ، فاغتصبت منه ما معه من السمك ثم قُبض على الدورية » ويعلق حسين شفيق على الخبر قائلا :

« عندما قبضوا على الدورية التى سرقت السمك ورأى المأمور العسكرى قال له :

- ارم بياضك !

يقول المحقق فى محضره إن الجندى الذى كان فى الدورية نصفه عسكرى ونصفه سمكة .

وقال أحدهم لوكيل النيابة : إذا كان البوليس يسرق فمن يحرسنا ؟

فقال له :

- اسم النبى حارسك

لما وصل العسكرى الذى سرق السمك إلى غرفة التحقيق وكيل النيابة شواه .

سألت النيابة العسكرى الذى سرق السمك عن اسمه فقال :

- بحرى بحرى .

عندما دعى العسكرى الذى سرق السمك إلى غرفة التحقيق دخل وعلى رقبته « شال ».

وكان فى الفكاهة باب عنوانه : « ما قولكم ؟ » وكان يُرَدُّ فيه على أسئلة القراء بتوقيع المفتي . فمن ذلك أن شخصا ذكر أنه أهدى فتاة خاتم الخطبة وبعد أن قبلته أعادته إليه ، وامتنعت عن مقابلته . فقال له فى إجابته : احمد ربنا .

وفقد بصره فى أواخر حياته ، فكان يرافقه أحد الشبان من

تلاميذه، ولقيه بعض أصحابه، فلما سأله عن الشاب أجاب :

- ده واحد ساحبنا !

ويمكن أن توجه كلمة ساحبنا على أنها صاحبنا . وكانت حياته كلها على هذه الشاكلة من التنذير والفكاهة وما يرافقها من ضحك وهزل ودعابة . وإلى جانب هذه الأبواب الفكاهية فى مجلة الفكاهة كان بها بابان يكتبها أيضا حسين شفيق المصرى أحدهما باب (نظرات معتوه) وهو نقد اجتماعى، وثانيها باب (الشعر المنثور). وهو نقد أدبى فى قالب تهكمى بأسلوب بعض الأدباء المعاصرين الذين ابتدعوا ما سموه الشعر المنثور

المجالس والمقاهى

كانت المجالس والمقاهى فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن تعد منتديات أدبية، ولم يكن يخلو مجلس فى القاهرة أو مقهى من مضحك: أديب أو شاعر أو من أبناء الشعب الذين تجرى الفكاهة فى روحهم. وهناك كثيرون اشتهروا بها مثل حسين الترزى وحسن الملا والشيخ حسين زينهم، وهى لا تزال تملأ ندواتنا ومجالسنا حتى دار الإذاعة نجدها تخصص لها بعض أركانها. ولابد أن نقف عند ثلاثة كان لهم فيها جولات ومواقف ونوادر يتناقلها المصريون، وهم محمد البابلى والشيخ عبد العزيز البشرى وحافظ إبراهيم.

محمد البابلى

كان البابلى سريع الخاطر بارع النكتة خفيف الروح، وتروى

عنه فكاهات كثيرة، فمن ذلك أنه برم يوما بشخص فى أحد المجالس، فلما جاء شاب هو ابن هذا الذى برم به، أظهر البابلى الضجر منه، فسأله من معه لماذا تضجر من هذا الشاب؟ فقال: هو ابن اللى آم (اللئام). والتورية واضحة. وركبته الديون ورهن أرضه فى البنك العقارى، وتصادف أنْ غنى أمامه صالح عبد الحى أغنيته المشهورة: أهل السماح الملاح فين أراضيهم؟ فقال: فى البنك العقارى. والتورية فى أراضيهم على نحو ما فهمها البابلى واضحة. وركب مرة مع عبد العزيز البشرى قاربا فى النيل، فظهرت أمارات الخوف على البشرى حتى قال له: الحقنى يابابلى المركب ستغرق فالتفت إليه فى هدوء وقال له: ياأخى ما تغرق (لتغرق) هى بتاعتنا؟!. ويروى أنه كان مسافرا مع صديق، واعترضهما سلم فصعداه، وبينما هما نازلان رأى البابلى فتاة جميلة، فوقف، وناداه صديقه: اسرع يامحمد حتى لا يفوتنا القطار فقال: كيف أستطيع النزول وروحى طالعة. ورآه بعض أصدقائه فى رمضان نهارا وهو جالس على مقهى يدخن النارجيلة فقال له: لا يصح ولا يليق أن تُفْطر فى رمضان واسمك كاسم النبى: محمد، فقال على الفور: أنا يا أخى من حزب فاطر السموات والأرض. وهى مغالطة واضحة. ولما قامت الأحزاب بعد ثورة سنة ١٩١٩ وانقسم الناس إلى وفديين برياسة سعد زغلول ودستوريين برياسة عدلى سأله بعض أصدقائه قائلا: يامحمد انت سعدست ولّا (أو) عدلست؟ فقال: بل أنا

فلست . وأحيل موظف إلى المعاش فكان يكثر من التردد عليه، وضجر منه، فلم يكد يلم به يوما حتى قال له: قل لى ياأخى هم أحالوك على المعاش أم حالوك على؟!

الشيخ عبد العزيز البشرى

كان المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى الأديب المعروف لا يقل عن البابلى خفة روح ورشاقة نكتة، وتروى عنه فكاهات ونوادر كثيرة . من ذلك أن رجلا من العوام استوقفه ليقرأ له خطابا فوجده طويلا ، فقال له إننى لا أعرف القراءة ، فتعجب العامى ، وقال له : كيف ذلك وأنت تلبس هذه العمامة الكبيرة ؟ فأمسك بعمامته ووضعها على رأس الرجل وقال له : اقرأ . ومن نوادره التى كان يقصها مبتسما على أصحابه أنه ركب يوما عربة (حنطورا) فسمع شخصا يقول : « ورا يااسطى ، ورا يااسطى » وضرب العربجى بسوطه المتسلق على العربة من خلف . والتفت الشيخ البشرى وراءه ، فوجد المتسلق هو حافظ إبراهيم ، أما الذى كان ينادى على العربجى ليضربه ، فهو إمام العبد !

واشتهر الشيخ البشرى بما كتبه فى مجلة السياسة الأسبوعية تحت عنوان: «فى المرآة». وكان يختار تحت هذا العنوان شخصية كبيرة من شخصيات من عاصروه مثل سعد زغلول وعدلى يكن وزيور وعبد الخالق ثروت ويرسمها (سنتيز) رسما كاريكاتوريا،

يتلوه الرسم القولى للبشرى.

وهنا نجد أثر الفكاهة الغربية فإن البشرى لم يكتف فى تصويره للأشخاص بتعقب هناتهم وسقطاتهم، بل ذهب يمثل نفسياتهم ومداخل طباعهم، يقول: «ولا يذهب عنك أن شأن الكاتب فى هذا الباب كشأن المصور الكاريكاتورى، فهو إنما يعمد إلى الموضع الناتىء فى خلال المرء، فيزيد فى وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات». وقد جمع ما كتبه تحت هذا العنوان ونشره فى كتاب معروف. واستمع إليه مثلا يقول فى الدكتور محجوب ثابت، وكان سياسيا مشوشا، يكثر من الخطب السياسية والأحاديث عن السودان وعن نفسه ورحلاته فى أوربا وعلمه وأدبه، يقول فيه:

«لا شك أن الدكتور محجوب ثابت يُعَدّ، بحق، فى ميراثنا القومى ولو - لا أذن الله - جرى عليه القدر لكان لابد للأمة من (دكتور محجوب ثابت) بأية طريقة من الطرق. نعم هو فى ميراثنا القومى لا يقل عن آثار سقارة وجامع السلطان حسن ومقابر الخلفاء. ولقد أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الأهلية كحفلة المحمل ووفاء النيل وركبة الرؤية وشم النسيم! ولما فكر المرحوم محمود (بك) رشاد فى جعل العلم المصرى محلى بصور بعض الآثار القديمة، فرعونية وإسلامية، لم ير المصور بدا من أن يرسم بجانب الهرم وأبى الهول وجامع برقوق وحضرة سيدى أبى السعود صورة الدكتور محجوب ثابت. والدكتور فى المصريين كإنجلترا فى الأمم،

كل منهما يرى عليه للآخرين تبعات لا تنقضى على وجه الأيام!
فإذا كان الكلام فى النيل وما عسى أن يحتازه عن مصر خزان مكوار تولى الدكتور الكلام وملكه على جمهرة المهندسين. وإذا كانت الثورة (١٩١٩) تصدَّر الدكتور لجنة الوفد المركزية! وكلما انتشرت فى البلد مظاهرة كان ناظورتها (المرموق فيها) الدكتور، وكلما ساروا بضحية حريةٍ كان الدكتور أول المشيعين. فإذا كان اجتماع فى الأزهر كان الدكتور فارسه المعلم. وإذا كانت مشاكل العمال أبى الدكتور إلا أن يتفرَّد بها من دون الناس جميعا، فانتفض نقيبا لعمال العنابر ولفافى السجاير وسواقى الأوتوموبيلات وشيالى المحطات ونُدل (خدم) الفنادق والقهوات وجميع طائفة المعمار وأصحاب الحوانيت من كل بدَّال وبقال وجزار وعمال المطابع وكناسى الشوارع وصناع الخيم ومسَّاحى (الجزم). ولو فكرت طوائف الجرذان والسنانير وجماعات الجُعْلان والصراصير فى أن تتخذ لها نقابات لمثَلَ الدكتور ثابت فيها خطيبا، ثم استوى لها بفضل الله نقيبا.

«وفى الحق أن الدكتور يرى نفسه مسئولا عن كل ما فى البلد من هابط وصاعد، وقائم وقاعد، وغاد ورائح، وسانح وبارح، ودارج على متن الغبراء، وطائر فى جو السماء. فإذا كانت هنالك منطقة خارجة عن اختصاص الدكتور محجوب فهى عيادته فقط! ولا أحسب رجلا فى مصر ولا فى إنجلترا مشغولا بالسودان شغل

الدكتور ثابت ، فحديث السودان يجرى منه مجرى النفس . وللدكتور فى مشكلة السودان نظرية طريفة جدا ، فإنه كان يرى أن كل العقدة فيها إنما هى فى إقناع المصريين وحدهم بقبوله، فهو كلما رأى رجلا أو امرأة أو صبيا أو وليدا أقبل عليه يقنعه فى قوة وحماسة بقبول السودان، ويظهر أن الدكتور ظن بعد لأى أن المصريين غير مقتنعين بضرورة السودان ، فشخص إلى سوريا ليقنع أهلها بضرورة السودان للمصريين ! فقد بلغنى أن ذلك كان حديث الدكتور هنالك فى مسائه وصباحه، وغدوه ورواحه، وموضوع مفاكهاته وأسماره، فى مقامه وتسياره .

«حقا هذا الرجل أمة وحده وإنه لعبقرى لا يتدلى إلى منطق الناس وأسباب تصورهم فإن له قياسه وتقديره ، وله منطقه وتفكيره ، وله أسلوبه وتدبيره . وأظهر صفاته فى هذا الباب أنه لا يحفل بما يسمونه الواقع كثيرا ولا قليلا ، فحسبه أن يشتهى الأمر فيقدره واقعا ، أمكن ذلك الأمر أو استحال ، ومثله من تخيل ثم خال . ولقد كان فى سنة ١٩٢١ يسعى جاهدا فى أن ينتظم عضوا فى الوفد المصرى ، وقد وسوس له شيطان من الإنس بأن عدلى (باشا) فكر فى تعيينه مستشارا فى الوفد الرسمى لولا أن انتهى إليه أن سعد (باشا) سيلحقه بالوفد المصرى ؛ فكان جوابه على الفور : « مافيش مانع ياسيدى » . وهكذا طمع الدكتور فى أن يكون عضوا فى الوفدين المتقاتلين معا ، سنة ١٩٢١ . وأذن الله ، ودخل

الدكتور فى الوفد المصرى طبعة ثالثة أو رابعة بعدما عصفت القوة بجلّة رجاله سنة ١٩٢٢ ، ثم بدا له لأمر ما ان « يشلحه » فكانت تخرج النداءات والمنشورات ممهورة بتوقيعات رجال الوفد وليس اسم الدكتور فيها ، والدكتور مصمم على أنه ما برح عضوا فى الوفد يلتمس لعضويته المعاذير بأنه ربما دُعى للتوقيع فغاب ، أو أُرسل إليه فلم يبلغ الكتاب ! . والدكتور محجوب ثابت عريض الألواح بعيد مدى العظام لولا أن فى جسمه رَهَـلا (استرخاء) ، أميل إلى الطول ، فإذا مشى خلته أحدب وما به حدبة ، ولكنه انحناء الظهر من ثقل التبعات لا من ثقل السنين ، عريض الجبهة إلا أن أسفل وجهه أعرض من أعلاه . يرسل سبَلته وعُثْنونه وشعر عارضيه فى هيئة لطيفة مقبولة ، وله عينان رقيقتان ترتسم فى بياض كل منهما دائرة تحيط بدائرة حتى تنتهى إلى إنسانها ، وهما دائمتا الحركة والاختلاج . وهو بعد طيب القلب ، مكفوف الأذى ، عذب الروح ، حلو الحديث ، ضحوك السن ، يتحرى فى قوله غريب اللغة ، ويلتمس الشاهد من مأثور شعر العرب ، وقد يجئ به أحيانا مكسورا غير متزن . أما قافاته فحدث عنها ولا حرج . جزت مرة بداره فرأيت فتاتين صغيرتين تتلاعبان ، فقالت إحداهما للأخرى : هذا بيت الدكتور ؟ فسألتها ومن الدكتور ؟ فقالت لها ألا تعرفين الدكتور الذى يقول : يابنت هاتى القبرة (الإبرة) ؟ !

« ومن أخص صفات الدكتور محجوب ثابت أنه لا يكاد يشعر

بمرور الزمن ، وإذا كان من آية يوشع أن الشمس رجعت له مرة فإن من آية الدكتور عند نفسه أن الشمس تثبت له موضعها على طول الزمان ، فأنت إذا دعوته ليتناول الغذاء معك أقبل عليك فى الساعة الخامسة بعد الظهر حتما فى غير ورع ولا اعتذار ، ولقد دعاه صديق لى وله لتناول الإفطار فى رمضان ، ولبثنا ننتظره برهة ، فلما أيسنا منه أفطرنا ، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقبل الدكتور مشمرا للفطور .

ومما يذكر للدكتور فى هذا الباب أنه ما أدرك قط القطار الذى يعتزم السفر فيه حتى تقرر عند جميع أصدقائه أنه إذا آذنهم بالسفر إلى بور سعيد فى قطار الساعة السابعة صباحا شخصوا إلى المحطة لتوديعه فى قطار الساعة الحادية عشرة ، وإذا آذنهم بالسفر إلى الإسكندرية فى القطار المفتخر كانوا بوداعه الساعة السابعة مساء. وهو لا يتعمل للدرهم ولا يجرى وراءه ، أما إذا سقط الدرهم فى جيبه فلا إلى رُجْعى ، فمثله فى ذلك مثل المصيدة لا تجرى وراء الفار ، فإذا سقط فيها الفار فهيهات ، ليس له منها فرار . وله فى هذا الباب أحاديث مذكورة وأفاكيه منشورة . وبعد فالدكتور محجوب ثابت أمة وحده بما اجتمع له من الصفات ، وما احتشد لديه من فنون المعلومات وما تكدس عليه من ألوان التبعات . وإنى لأقترح على الحكومة أن تصدر قرارا بنزع ملكيته وإضافته إلى المنافع العامة ، ولعلها بعد العمر الطويل تجعله من نصيب دار

الآثار ، حتى يظل رمزا لتلك العبقرية الفريدة على طول الأعصار » .

وواضح أن الشيخ البشرى يستعين فى رسمه للدكتور محجوب ثابت بالمبالغة من جهة واستخدام المفارقات من جهة ثانية مع العناية ببيان النفسية والطبع والمزاج . وبلغ من ذلك كله الغاية فى رسم شخصياته المختلفة مع العناية التامة بلغته . وكان يكتب فى مجلات أخرى غير السياسة الأسبوعية مثل المصور والثقافة ، وكان يذيع على الناس أحاديث فى الإذاعة ، وكلها تطبعها هذه الروح الفكهة . وفى كتابه « قطوف » تحفٌ من ذلك كثيرة .

ومن يرجع الى هذا الكتاب « قطوف » وهو مطبوع فى جزئين ، يبصر الى أى حد كان البشرى كاتبا فكها . فقد كان يعرف كيف يستخرج الفكاهة من كل إنسان ومن كل جانب من جوانب حياتنا المصرية التى شاهدها تحت بصره .

وقد عمد كثيرا إلى الموازنة بين ما كنا عليه فى أواخر القرن الماضى وما صرنا إليه فى هذا القرن ، من عادات قديمة أو مستحدثة ، ولا تقرأ ذلك عنده حتى تبتسم وقد تضحك ، إذ كان يعرف بأسلوبه فى المزاح كيف يعرض الحق الصريح ، فإذا هو مشحون بالسخرية والفكاهة . ومن طرائفه فى ذلك فصل كتبه بعنوان « كيف كان الشباب يزوَّجون » .

وكان يعرف كيف يعرض حاضرنا عرضا فكها أيضًا، وخاصة ما اتصل منه باستخدامنا لبعض آلات المدنية الحديثة ووسائلها، حتى لتتحول إلى ما يشبه فرجة أو تسلية أو عذابا وبلاء. واقرأ ما يقوله من فصل عن التليفون :

« التليفون، عصمك الله من كل مكروه، كما تعرف أداة سريعة للتخاطب سواء فى قضاء الحوائج أو فى دفع الكوارث أو فى الاستنجاد فى الأحداث أو نحو ذلك. على أن الكثيرين منا نحن المصريين والسيدات على وجه خاص لا يفرضون له ذلك البتة، بل إن بعضهم وبعضهن ينظمونه فى جملة الآلات الموسيقية كالعود والقانون، والبيان كما دعاه المجمع اللغوى، والكمان مثلا. فإذا أنعم الله على سيد أو سيدة من هؤلاء بالتليفون فى دار صديق أو غير صديق جعل يتحدث ويتحدث مايكلّ ولا يملّ ولا يتعب ولا ينصب، ولا تقفه شهقة، ولا يختلج له فك، ولا ينقطع له نَفسٌ، بل لعله فى لذته واستمتاعه أمرح من مستمع إلى عود حاذق أو قانون ضارب محسن. ومما حدثنى به الثقة الصادق أن سيدة من صديقات أسرته تختلف إليها للزيارة فى أكثر الأيام، وما بلغت الدار قط إلا عدلت من فورها إلى التليفون، فتكلمت، ثم تكلمت، حتى إذا أذن الله للكلام بختام رفعت السماعة ثانيا وافتتحت مع آخرين حديثا آخر، وهكذا حتى إذا تمت لها ثمانية أحاديث أو عشرة قامت فجلست إلى صاحبات الدار، وما أن تفرغ من شرب القهوة بعد

السلام وبث الأشواق وما إلى ذلك حتى تهرع إلى التليفون أيضًا ، فتعيد ما بدأت وتستأنف من الأحاديث ما قطعت ، وهكذا . قال صاحبى : ولقد أقبلت هذه السيدة ذات يوم وأنا جالس فى غرفة قريبة من آلة التليفون بحيث أسمع برغمى الحديث فى يسر ، فأنا أشد الناس كراهة للتسمع على الناس ، ورحت أعد « النمر » التى تطلبها ، فإذا هى ست عشرة قد استهلكت جملة الأحاديث فيها ما يقرب من الساعتين،وإنى أستطيع مطمئنا على دينى وضميرى أن أحلف لك بكل ما يحلف به البار والفاجر على أنه ما سقطت إلى أذنى من كل ذلك كلمة واحدة تدعو إليها ضرورة أو تبعثها حاجة أو تنفع فى أى شىء أو تضر فى أى شىء أو يترتب عليها فى يوم من الأيام أى شىء .

« وحدثنى صديق من الظرفاء قال : كنت جالسا فى مقهى (كذا) وكان ذلك فى شهر يولية . وكان اليوم شديد الحر ، وبدا لى أن أتحدث فى التليفون إلى صديق فى شأن عاجل ، فإذا مقصورة التليفون مشغولة برجل يتحدث جاهدا ويهز رأسه هزا عنيفا ، كأنما يوقع به على نَبرْ الكلام أو يمسك « الواحدة » على حد تعبير أصحاب الموسيقى . وانتظرت طويلا لعله ينتهى ، فلم ينته . فعدت إلى مجلسى حتى مضتْ نصف ساعة أيضا ، ثم نهضتُ ، فنقرت له على الزجاج ، أتعجله ، فالتفت إلىَّ ، وإن كان فمه لم يلتفت ، وجمع أطراف أنامله وأشار إلى بالتمهل ، فأمهلته ، حتى سمعته يحيى

صاحبه تحية الختام، ثم أفزعني أنه استأنف الحديث فقال لصاحبه: « إلاَّ قل لى ». ويمتد الحديث شوطا آخر، فإذا أذن الله وسمعت منه « نهارك سعيد بقى » مثلا، فتنفست الصعداء كما يقولون، عاد فقال: « لكن ماقلتليش على كذا ». وهكذا، حتى كدت أخرج من جلدى. ولم يغظنى أكثر من أن أسمعه يقول فى وداعه لمحادثه؛ « بكره إن شاء الله نتقابل فى محل كذا » فاقتحمت عليه المقصورة وقلت له: « يا أخى لقد سرقك الكلام فقد صرنا بعد بكره »

« ولا تظن أن هذا الرجل وتلك السيدة من الشواذ فينا نحن المصريين، وأرجو ألا يغيب عنك أن هذه الإطالة التليفونية قد تجر أحيانا إلى أخطار، بل لقد تجر إلى أشد الأخطار. فلقد يطلبك قريب أو صديق أو أى إنسان بينك وبينه عمل، ليحدثك فى أمر عاجل، فلا يصل إليك، حتى يفوت الوقت وتفلت الفرصة، وتضيع المنفعة، وتقع المضرة. ولقد يدق جرس التليفون فى الصباح الباكر وأهل الدار نيام فى السادسة إذا كان الوقت شتاء، وفى الخامسة إذا كان صيفا، فيهبون مذعورين، وقد وجفت قلوبهم وزاغت أبصارهم وتلاحقت أنفاسهم، لأن التليفون فى مثل هذه الساعة لا يمكن أن يفضى بخير، بل قلَّ أن يفضى فيها إلا بالشر الكبير، والعياذ بالله. ويتقدم أشجع أهل الدار ويتناول السماعة بيد مرتعشة ويقف سائرهم وقفة منتظرى الحكم فى الجنايات الخطيرة. ثم إذا هم يسمعون: « لا، النمرة غلط ». فينصرف كل منهم إلى سريره

أو إلى بعض شأنه، ما يتكلمون، فقد عقد الذعر ألسنتهم فما يقوى أحد منهم على الكلام .وكل ذلك لأن البارد السمج الذى يطلب التليفون فى هذا الوقت لا يجشم نفسه التحرى عن الرقم المطلوب، فيكفى الآمنين كل هذا البلاء. ولقد يدق جرس التليفون ، فتجيبه ، فيجرى الحديث هكذا :

- إنت سى عطوة
- لا
- إمّال إنت مين
- أنا مش سى عطوة وبس
- طيب ما تقول إنت مين
- يا أخى ! أنا لست سى عطوة الذى تطلبه وكفى
- ده مش محل فلان ؟ (ويعين متجرا أو مصنعا)
- لا ياسيدى ! هذا منزل
- منزل مين
- منزل لا شأن لك به ياسيدى
- أما شىء بارد، أما ابن ... صحيح! ويسرع إلى قطع الحديث . والحمد لله .

« ولقد يطلبك الطالب ، فيسألك : أأنت فلان، فإذا سألته اسمه أبى أن يجيبك، أو تبدأ أنت أولا بالجواب عما سأل. وتراجعه فى هذا ، فيلح ويأبى ، والعـرف واللياقة يقضيان بأن يفضى باسمه هو

أولا ، ليدع لك الخيار فى حديثه أو الانصراف عنه . ومما يتصل بهذا المعنى أن يطلبك طالب ، فإذا سأله الخادم عن اسمه كان جوابه :

« بس قل له واحد عايزك » ولا يأذن باسمه أبدا .

ومما يتظرف به الكثير أن يطلبك وقد تكون مشغولا جدا ، فإذا استوثق من شخصك بدأك بالتحية ، فتحييه بأحسن منها أو مثلها . ثم يكررها على ألوان وصور شتى . ولا يسعك إلا أن ترد عليه التحية بالتحية ، ثم لا يلبث أن يفاجئك بهذا السؤال :

- طيب أنا مين .
- ياسيدى ! قل لى حضرتك مين .
- بقى مش عارف أنا مين .
- بماذا تأمر ياسيدى .
- لازم تقول لى أولا أنا مين .
- لعل خللا فى أسلاك التليفون يغير من صوتك ، فاعمل معروف وقل لى مين أنت ؟
- طيب افتكر كده .

« ولا يزال يلون لك هذا العذاب أو تخبره من هو ، أو بعبارة أخرى . لتلقنه اسمه ، وتقدم إليه شخصيته ، وتعرفه نفسه . وكيفما كان الحال فقد أضاع وقتك ، وأثار أعصابك ، وأحبط سعيك ، وحال بينك وبين معاودة عملك . وهكذا يكون التظرف وكذلك يكون الظرفاء . وبعد فإذا كان لى أن أسأل الله لمجموعنا شيئا فإنى أسأله

أن يعلمنا كيف نلتزم في التليفون القصد والدقة وأدب الكلام، وما ذلك على الله بعزيز »

والشيخ عبد العزيز البشرى فى هذه الصورة القلمية لآلة التيلفون ومضايقاتها مصور ماهر، يعرف كيف يصوب فكاهته وسخريته إلى نقط الضعف فى عاداتنا، فإذا هى تبرز بروزها فى الصور الكاريكاتورية. والطريف أنه يسوق إليك ذلك فى أسلوب يختلط فيه الجد بالمزاح واللذع. ومن هنا تأتى المفارقة التى تثير فيك السخرية. ولم يكن ينقصه شيء كى يحسن هذا الأسلوب الفكه، فقد كان فطنا حاضر البديهة سريع الجواب، وكانت فيه دقة حس شديدة، فلا يلم بشيء إلا استقصاه من أطرافه، واستخرج منه فكاهاته.

ولا يكتفى البشرى فى كتاباته بما يروى من نوادره، فقد يروى نوادر عن غيره تفكهة لقارئه كهذه النادرة التى رواها عن صديقه حافظ إبراهيم:

« قبل أن يوصل ما بين منيل الروضة والقاهرة بالجسور (الكبارى) كان الناس يتخذون الفلك (المعدية) فى طلبهم الشاطئ من الشاطئ. وجاء رجل من القاهرة ليعبر إلى الروضة من ساحل فم الخليج، وكان الليل قد تقدم. فوجد ملاحين يغطان فى نوم ثقيل من تعب الليل وكدّ النهار، فما زال بهما حتى بعثهما، ونهض أحدهما إلى موضع المجاذيف، وتولى الثانى الدفة. وأنشأ صاحب

المجاذيف يضرب بمجذافيه سطح الماء . على أنه ما كاد يفعل مرتين أو ثلاثا حتى أحس شدة جفاف الحلق من أثر العطش، فتناول الكوز، ولم يكن يعرف أن زميله كان قد أذاب فيه ملحا ليعالج به أذنه، واغترف به من النهر غرفة، وشرب من الماء، فإذا هو ملح أجاج، فصاح من فوره بزميله صاحب الدفة، وكأنه لا يزال نائما يحلم :

– يا ريس عويس !

– هو !

– إيدك .. دخلنا المالح »

والحق أن البشرى كان يحسن صناعة الفكاهة قولا وكتابة غاية الإحسان، من كل شكل ومن كل لون لذعا ومزاحا ودعابة.

حافظ إبراهيم

ربما كان حافظ أهم من عاصروا الشيخ البشرى سرعة خاطر وحضور بديهة ، يُروى عنه أنه كان يلبس بدلة لا يغيرها فقال له أحد أصدقائه لماذا لا تغير هذه البدلة، فأجاب على الفور لأن فيها صفتين عزيزتين : القدم والوحدانية ، يريد أنه لا يملك سواها . ودُعى على مائدة بعض الأثرياء مع صاحبه البشرى وكان الطعام سمكا ، فلاحظ أن البشرى يأكل وليس أمامه شوك متبق مما يأكله ، وكانت الفاكهة عنبا بناتيًا ، فتعجب حافظ ، وسأله : أتبلع

الشوك أو أن أمامك سمكا بناتيا لا شوك فيه ؟ . ومرض أحد أصدقائه وعرف أن عنده المصران الأعور ، وهو عادة فى الجانب الأيمن ، وحدث أن جانبه الأيسر آلمه بعد زيارته ، فتمارض وظن أنه مريض بالمصران الأعور ، فقال له بعض أصدقائه إن المصران لا يكون فى الجانب الأيمن ، فقال له : ربما يكون أعور شمال يا أخى !

وكان صديقا لإمام العبد الشاعر السودانى ، وكانت فى إمام دعابة ، فمن ذلك أنه تأخر فى إحدى سهراته ، وكان بيته بعيدا فنادى على عربجى ليوصله ، وركب ، وحينما قرب من المنزل أخرج رأسه وقال (للعربجى) قف ، سيدى نزل . وكان يتيه على حافظ مع كثرة ما يستولى عليه من نقوده ، وكان يقول لأصدقائه : لولاى ما عرف حافظا أحد ، فأنا الذى خلقته ، وبلغ ذلك حافظا ، فأسرَّها فى نفسه حتى دنا منه يوما وسأله بعض النقود ، فقال له : أنا يامولاى كما خلقتنى . وتصادف أن غاب إمام عن مجالسه ، فذهب يزوره ، ثم رجع يقول لأصدقائه إن بيت إمام ضيق جدا ، وقد سمعت أن خفير الدرك يشكو كل ليلة من أنه حين يمر بمنزله يتوقف عن المرور وينادى : يا إمام رجليك طالعة من الشباك ، يا أخى مش ضرورى تنام متمدد . وذهبا مرة للاصطياف معا فى الإسكندرية ونزل إمام العبد البحر فلما خرج منه قال له حافظ : أهو أنت الآن سودانى ومملح . ولبس إمام يوما رباطا للرقبة أسود فلما رآه حافظ

قال له : زرّر القميص . وكان إمام يكتب ذات يوم فوقعت نقطة حبر أسود على الورقة التى يكتب فيها وهو غير ملتفت ، فقال له حافظ : نشّفْ عرقك . وكانا يسيران فى بعض الأيام واتفق أن مرًّا أمام منزل أنيق ورأى حافظ بابه يفتح ، وخرجت منه سيدة جميلة ، فوقف ينظر إليها وفجأة قبَّل إمام العبد ، فسأله ما هذا يا حافظ ؟ فقال له : أقبِّل الأرض بين يديها ، وأشار إلى السيدة .

ولم تكن فى حافظ هذه النكتة البارعة فحسب ، بل كان معها حلو المعشر فكه الحديث ، يعرف كيف يروى النوادر والأخبار ، فكان كبار المصريين يتلقفونه فى مجالسهم ، وممن كان يعجب به وبحديثه إعجابا شديدا سعد زغلول زعيم الأمه ، وكان يدعوه لزيارته فى مصطافه بمسجد وصيف كما كان يدعو أعجوبة العصر محجوب ثابت فكانا يتراشقان بالنوادر .

ومن طريف ما يروى أن « الدكتور محجوب » كان مع حافظ ابراهيم وبعض صحبه فى ضيافة سعد زغلول فى مسجد وصيف ، وذات يوم أصبح الدكتور محجوب يروى لهم حلما رآه فى النوم ، فسأله سعد عن الحلم ، فقال رأيتنى راكبا جملا كبيرا ، ومن خلفه عدد كبير من الحمير ثم جاءنى رجل ومعه رسالة من كبير ، فسلمنى إياها . فنظر سعد إلى حافظ وقال له : « فسِّرْ لنا هذا الحلم ياحافظ » فقال : أما الجمل الذى يركبه الدكتور محجوب فهو كرسى النيابة ، وأما الرسالة ، فهى تكليف من أولى الأمر لمحجوب

بتولى وزارة الصحة ، وكان الدكتور محجوب يمنى نفسه بهذه الوزارة . ثم قال حافظ : « أما الحمير فهم هؤلاء الذين انتخبوه فى مجلس النواب » !

وقد نظم حافظ فى وصف محجوب ثابت قصيدة فكهة طويلة ، وهى مثبتة فى ديوانه وفيها يقول مشيرا إلى هذا الحلم وماعُرف به فى كلامه من تمسكه بالقاف ، يلوكها لوكا ، وكثرة حديثه عن السودان وغير السودان :

يُرْغى ويُزْبد بالقافات تحسبها ... قصفَ المدافع فى أفْق البساتينِ
من كل قافٍ كأن الله صوَّرها ... من مارج النارِ تصويرَ الشياطين
قد خصَّه الله بالقافات يَعْلكها ... واختص سبحانه بالكاف والنون
يغيب عنه الحِجا حينا ويحضُره ... حينا فيخلط مختلاًّ بموزون
لا يأمن السامعُ المسكين وَثْبته ... من (كردفان) إلى أعلى فلسطين
بيناتراه ينادى الناس فى (حَلبٍ) ... إذا به يتحدَّى القوم فى الصِّين
ولم يكن ذاك عن طيشٍ ولا خَبلٍ ... لكنها عبقرياتُ الأساطين
يبيت ينسج أحلاماً مذهبة ... تغنى تفاسيرُها عن ابن سِيرين
طورا وزيرا مشاعا فى وزارته ... يصرِّف الأمر فى كل الدواوين
وتارة زوج عُطْبولٍ خَدَلَّجة ... حسناء تملك آلاف الفدادين
يُعْفَى من المهر إكراما للحيته ... وما أظلَّتهْ من دنيا ومن دين

وكان محجوب ثابت يمنى نفسه الى جانب وزارة الصحة بزواج فتاة جميلة أو عطبول خدلجة كما قال حافظ ويطلب أن تكون ثرية

تملك آلاف الفدادين

وفى ديوان حافظ فكاهات ومداعبات مع البابلى وغيره من أصدقائه . ويروى أنه رأى رجلا بطينا عظيم الكرش فقال له مداعبا : ما أراك إلا ممن يطلبون المساواة بين المرأة والرجل ، فأجابه نعم ، فقال حافظ : ظاهر لقد حملت عنها حملها ، وتلك غاية ما بعدها غاية فى المطالبة بالمساواة بين المرأة والرجل أو بين الجنسين . ومر يوما على رجل يبيع مراوح ، فسأله عن ثمنها فقدم له مروحة ، وقال له : هذه بقرش واحد ، ثم قدم له أخرى مثلها وقال له : وتلك بقرشين ، ونظر حافظ فى المروحتين وقلّبهما ، ولم يجد فرقاً بينهما ، فقال له : أهذه تأتى بهواء بحرى والأخرى تأتى بهواء قبلى ؟!.

ودعا جماعة من أصحابه إلى طعام ، وجاءوا معهم بصديق لهم لم يكن يعرفه ، ولاحظ حافظ أنه يكثر من الأكل ، فقال له : ترى ماذا كان يكون أمرك لو كنت حقا من المدعوين ، هلا ذكرت أنك مدعو من باطن مدعو ، ثم قال له : يا أخى إنك تشبه الخزانة التى بها درج سرى !. ودُعى مع جماعة على طعام ، وكان على المائدة ديك رومى صغير لم يعجب حافظا ، فقال للمضيف : ما أظن هذا الديك إلا دجاجة نفختها بمنفاخ دراجة ، ثم قدمته لنا على أنه ديك رومى . وكتب الدكتور هيكل مقالا عنه وعن شوقى بعنوان شوقى وحافظ ، وبلغه أن شوقى غضب لذكره معه فى مقال واحد ، وكان

يرى نفسه فوقه فى الشعر ، فقال لماذا يغضب ؟ أما سمع الناس يقولون : « زفتى وميت غمر » فهل غضبت من ذلك زفتى أو غضبت ميت غمر ؟ وهم أيضا يقولون : « سميط وجبنة » و « خيار وفاقوس » و « عسل وبصل » . وكان لا يلبث أن يعقب على ذلك بقوله ضاحكا : « أما من يكون العسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى »

شوقى ومحجوب ثابت

لم يكن شوقى مشهورا بالدعابة أو النكتة على نحو ما كان حافظ إبراهيم معاصره ، ومع ذلك ففى ديوانه بعض دعابات لعل أطرفها ما ساقه مداعبا به محجوب ثابت . وكان شخصية فذة كما مر بنا فى وصف البشرى وحافظ له ، ومعروف أنه كان من خطباء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وعُرف بحصان كان يركبه فى غدوّه ورواحه ، وأطلق بعض أصدقائه على هذا الحصان اسم « مكسوينى » وهو اسم بطل أيرلندى انتحر جوعا ، يكنون بذلك عن هزال الحصان وجوعه . واستبدل محجوب ثابت بالحصان سيارة فقال شوقى مداعبا لمحجوب :

لكم فى الخطّ سياره ... حديثُ الجار والجاره
إذا حرّكتَها مالتْ ... على الجنبين مُنْهاره
وقد تَحْرُن أحيانا ... وتمشى وحدها تاره

ولا تُشْبِعُها عينٌ   من (البنزين) فوّاره
ولا تَرْوَى من الزيت   وإن عامتْ به الفاره
ترى الشارع فى ذُعْرٍ   إذا لاحتْ من الحاره
وصِبْيانا يضجّونَ   كما يلقون طياره
وفى مَقْدمها بوقٌ   وفى المُؤْخر زماره
وقد تمشى متى شاءت   وقد ترجع مختاره
قضى الله على السوًّا   ق أن يجعلها داره

* * *

أدنيا الخيل يا (مَكْسى)   كدنيا الناس غدّاره
فصبرا يافتى الخيل   فنفس الحر صبّاره
أحقٌّ أن (محجوبا)   سلا عنك بفَخّاره
ولم يعرف لك الفضل   ولا قدّر آثاره
ولا والله ما كلّفـ   ـت (محجوبا) ولا (باره)
فلا البرسيم تَدْريه   ولا تعرف نُوّاره

وهى قصيدة طويلة كلها على هذا النحو من الدعابة ، ومن طريف ما داعبه به وصفه لبراغيث عيادته على هذا النحو :

براغيث (محجوبَ) لم أنسها   ولم أنس ما طَعِمَتْ من دمى
تشقّ خراطيمُها جَوْربى   وتنفذ فى اللحم والأعظم
ترحّب بالضيف فوق الطريقِ   فباب العيادة والسلّم

قد انتثرتْ جوقةُ جـوقة — كما رُشَّت الأرض بالسمسمْ
وتبصرها حول (بيبا) الرئيسِ — وفى شاربيه وحـول الفم
وبـين حفـائـرِ أسـنـانـه — مع السُّوس فى طلب المطعم

ولشوقى دعابة كتبها على لسان الدكتور محجوب ، يعلن فيها غضبه على سليمان فوزى صاحب مجلة الكشكول وكان يكثر من هجائه والتندير عليه وعلى حصانه وحتى بعد موته . وكان شوقى يحاول أحيانا الصلح بينهما إذا التقيا فى مجلسه ، فيأبى محجوب قائلا : « يشتمنى فى زفة ويصالحنى فى عطفة » . فنظم شوقى هذه الدعابة على لسان محجوب ، وفيها يقول :

يمينـا بالـطَّلاق وبـالعِتـاقِ — وبـالدنيـا المعلقمة المـذاقِ
وكلٌّ فَقارةٍ مِن ظهر (مكسى) — بصحراء الإمام وعظم ساق
وتربتهِ وكـلُّ الخير فيهـا — ونسبتـه الشريفـة للبُـراق
وبالخطب الطوال وما حَوتْه — وإن لم يبق فى الأذهان باق
وكَسْرى الشعرَ إن أنشدت شعرا — ونطقى القافَ واسعـة النطاق
أيشتمنى سليمان بنُ فوزى — و(بيبى) فى يدى ومعى (طباقى)
وتحت يدى من العمال جمعٌ — يشمرٌ ذيله عند التـلاقى
ولسنا فى البيان إذا جرينا — لأبعد غايةٍ فَرَسَىْ سباق
تُقاقى ذقنه من غير بَيْض — ولى ذقنٌ تبيض ولا تقاقى
وتحلاق اللِّحَى ما كان رأيى — ولا قصُّ الشوارب من خَلاقى

ألا طزٌّ على العَيْهـور طز | وأن أبدى مجاملة الرفاق
بقارعة الطريق ينال منى | ويوسعنى عناقا فى الزُّقاق
وليس من الغريب سوادُ حظى | وبالسودان قد طال التصاقى
ألم ير أننى أعرضت عنه | وصار لغير طلعته اشتياقى
وسبحان المفرِّق : حظ قومٍ | قنـاطيرٌ وأقـوامٍ أواقى
وعيشٌ كالزواج على غرام | وعيشٌ مثل كارثة الطلاق

القاهرة وأبناء البلد

هذه الروح الفكهة نجد آثارها على لسان جميع المصريين فى مجتمعاتهم ونواديهم ومقاهيهم ، ولمن يشتهر بها بينهم مقام ملحوظ ، وقد وصف قاسم أمين أحدهم ، فقال :

« رجل خفيف ولطيف ، لا تغيب البشاشة عن وجهه ، ولم يره أحد قط غير مبتسم ، إذا قال لك نهارك سعيد ضحك ، وإذا أخبرته أن الهواء طيب ضحك ، وإذا سمع أن زيدا مات ضحك ، زينة المجالس وأنيس النوادى ، يرى نفسه مكلفا بوظيفة السرور فيها ، ومنوطا بنشر التفريح حوله . يستخدم كل شىء لتسلية نفسه وأصحابه ، فيجد فى أهم الحوادث موضوعا للتنكيت وفى أحسن الرجال محلا للسخرية . لو ضحيت حياتك فى أشرف الأعمال فلابد أن يفتش فيها عن الجهة التى يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس » .

وهذه الروح أكثر ما تشيع فى أهل القاهرة ، فهى أكثر مدن مصر ميلا للضحك والتندير ، وكثيرا ما يطلقون على من يشتهر بذلك فيهم « ابن بلد » يعنون بذلك رقته وحسن ذوقه ومعرفته لمناحى الكلام وما يطوى فى ذلك من ظرف ولباقة .

ولأبناء البلد هؤلاء طرق مختلفة فى التنكيت ، ومن أشهرها القافية ، إذ يدعى اثنان للمبارزة الفكهة فى موضوع بعينه ، ويبدأ أولهما فيذكر شيئا ، ويقول الثانى : إشمعنا « إيش معنى ؟ » أى لماذا فيجيبه الآخر إجابة مسكتة ضاحكة .

وهناك ضرب آخر من النكت يقوم على « القفش » إذ يعلقون على أى موضوع بالنكتة . وتستغل هذا المعين صحافتنا الحاضرة ، كالنكت عن ثرى الحرب والجيل الحديث والتسعيرة والحماة والزوج والزوجة وبنت الذوات ورفيعة هانم . وليست هناك حادثة تمر دون أن تستخرج منها النكتة ، وكأن الصحافة المصرية تستمد فى ذلك كله من نبع لا ينضب ، وهى تضيف إليه صورها الكاريكاتورية على نحو ما نقرأ فى الأخبار والأهرام والمصور .

فى الأزجـال

وقد شاعت الأزجال فى عصرنا الحديث ، وكان طبيعيا أن تعمها روح الفكاهة لأنها تكتب بلغة الشعب وتعبر عن حياته تعبيرا ليس فيه تكلف ، ومر بنا بعض أزجال للشيخ محمد النجار وفيها نقد

فكه ، فيه شيء من المرارة ، لبعض جوانب حياتنا . وخلفه كثير من الزجالين ساروا فى نفس الدرب الذى سلكه ، ومن أشهرهم الشيخ عبد الله هلبها والشيخ أحمد القوصى وعزت صقر والشيخ يونس القاضى وحسين الحلبى وحسين مظلوم ومحمود رمزى نظيم ، وبديع خيرى وله تمثيليات فكهة مثلها نجيب الريحانى ، ونسوق قطعة من زجل طريف له ، ينتقد فيه طمع الآباء إذ يزوجون فتياتهم من الطاعنين فى السن ، لثرائهم ، حتى لو كانوا من الريف ، يقول :

هناك فى شارع مراسينه   نصبوا الزينه
ليلة جواز ستّ أمينه
بالشيخ منوفى أبو خلاف

وأمينه كانت تلميذه   لمده وجيزه
حبوبة رؤيتها لذيذه
دمها ما تقولش خشاف

والشيخ منوفى بلغ تمانين   من عمره الطين
لكن بقا حواليه فدادين
وبيت فى عطفة أم لحاف

والقرش فى الدنيا صياد   غياظ كيّاد
يصبّح الخدام أسياد
ويشقلب الحال خلف خلاف

أبــو أمينــه لقى لقيَّــه   لُقْطه غنيَّــه
صــرف النـظر بــالكليـه
عن صدغ يشبه صدغ الثور

وعينين مدغششه طلمسها   كتــر عماصــها
وأسنان صناعى مــرصَّصها
حكيم غشيم فى حنك مهجور

فاكر أبوها كمـان سنتين   سى عريسِ البين
يتـوفى ويسيب القــرشــين
يـورثهم الصهر الـطرطور

ماخطرشى الاهبل على باله   قـول أمثــاله
يـا واخـد القـرد لمـالـه
المال مزعزع مش مضمون
تلقــاه مــادام تستنــالــه   الفنـا جــاله
والقرد فاضل على حـاله
ما ينوبك إلا السحنه الدون

واهو الجواز عنـدنا بلوه   بيــعه وشــروه
هم البنات دول أبو فروة
والاّ بضـايـع بــالنـولــون

بيرم التونسى

ولا نبالغ إذا قلنا أن بيرم التونسى كان أبرع الزجالين المعاصرين وأكثرهم حبا وقربا من القراء وكان لا يبارى فى الوقوع ، على المآخذ والعيوب الاجتماعية مع التصوير الفكه والروح العذبة والإتيان بالكلمة الساخرة والأخرى المضحكة. ومن أزجاله المشهورة زجله فى العيون وأصنافها :

من العيون ياسلام سلّمْ   شوف واتعلّمْ
تحت البراقع تتكلم   والدنيا نهار

* *

عيون تقول لك قصدك إيه   بتبحلق ليه
ما لكش شغل تعسّ عليه   ياراجل ياحمار

* *

وعيون تقول لك أنا عارفاك   والنبى ما انساك
من يوم ما شوفتك م الشباك   ياجدع ياصغار

* *

وعيون تقول لك روح يارذيل   يابو دم تقيل
يا باى ! كبه فى المخاليل   ياما هم كتار

* *

وعيون تقو لك أنا حبيت   ياللابنا عَ البيت
وعيون تقول ان شاالله ما جيت   أنا رايحه الزار

* *

وعيون تقول لك بالمحسوس   أنا عايزه فلوس
وان شاالله حتى تحوس وتدوس   أنا عاملاه كار

* *

وعيون تقول لك امشى ياواد   أنا أم أوْلاد
وعيون تقول لك عندى معاد   ويًّا السمسار

* *

وعيون بسرًّ الحب تبوح   كدا بالمفتوح
وتعـرف القلب المجروح   ما عليهش ستار

* *

وعيون تسبل فوق الخد   دى جد ف جد
وعمرها ما تكلم حد   عيـون أحرار

* *

وعيون تحقق فيها بشوق   تهرب على فوق
بتقول لك ابعد عنى بذوق   نظـرات نار

* *

وعيون ما تعرف زعلانه أو فــرحــانه ،
صباح مسا أهى دبلانه صــاحبة أفكار

* *

وعيون لها ضحكة ف وشك بس تغشــك
وتبص من تحت اليَشْمك تلقى المنقار

* *

وعيون كدا يبقم ساهتين صــفر وباهتين
بالشكل ده عيون الخاينين تضرب بصفار

* *

وعيــون تبص وتتسفلق واقفه شلقلق
وعيــون تبــربق وتبحلق عايزين مسمار

وكانت صحيفة الجمهورية قد خصصت لبيرم يوما فى الأسبوع يدبج فيه صفحة من صحفها بفكاهاته التى يكتبها تارة فى أزجال ، وتارة فى مقامات ومقالات فكهة . وأخرى فى الفوازير البارعة. وكان كثيرا ما يقلب بعض قصائد قديمة أو حديثة إلى قصائد مرحة ، وهو بارع براعة منقطعة النظير فى الوخز والغمز والتقريع .

الأدباتيــة

وكان فى مصر إلى عهد قريب جماعة من « الأدباتية » ينشدون بعض الأزجال فى الموالد يجمعون بها بعض الدراهم من السامعين، وكانوا يعتمدون فى الأكثر على محفوظاتهم، وقد ينشئون بعض الأزجال من إنشائهم. وأحيانا يحملون « دربكّة » صغيرة يضربون عليها كما يضربون على صاجات، وقد يلبسون طرابيش، وتراهم يحركون أزرارها حركة دائرة ليضحكوا الناس، ومن أزجالهم المشهورة :

أنــا الأديب الأدبـاتى ألم العيش تحت بطاطى

ولعبد الله نديم حادثة مشهورة مع طائفة منهم فى مولد السيد أحمد البدوى بطنطا، إذ نشبت بينه وبين الأدباتية هناك معركة زجلية حامية كان النصر فيها حليفه، وهى مروية بترجمته فى كتاب أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأحمد تيمور.

فى الكتابات الأدبية

هذه الطوابع الفكاهية طُبعت بها كثير من الكتابات عند بعض أدبائنا البارزين، وليس معنى ذلك أننا نجدها فى أدبنا الفصيح بمقدار ما نجدها فى أدبنا الشعبى، ولكنها موجودة به على كل حال، وقد

اشتهر بها الشيخ عبد العزيز البشرى - فى كتاباته الأدبية على نحو ما مر بنا - ونراها بارزة فى ملهاة الست هدى لشوقى، وهى تبرز أيضًا عند توفيق الحكيم فى يوميات نائب فى الأرياف وفى بعض أقاصيصه، وتتجلى كذلك فى كتابات محمود تيمور وقصصه، كما تتجلى عند المازنى بصورة بديعة فى كثير مما كتب من قصص وكتب ومقالات، ولذلك يحسن أن نخصه بكلمة.

إبراهيم عبد القادر المازنى

كان - رحمه الله - فى طليعة أدبائنا المثقفين بالثقافة الغربية، وكان يُعجب أكثر ما يعجب بكتاب الغرب الساخرين من أمثال مارك توين الأمريكى وتورجنيف وهاتزيباشف الروسيين، وكأنما التقت الروح الفكهة المصرية عنده بالروح الفكهة الغربية وما تطوى من سخرية وتهكم على طبائع البشر ومفارقات الحياة.

وبذلك اكتملت له فى أدبنا الحديث شخصية أدبية ساخرة بكل ما فى الحياة من أشخاص وأشياء وآمال وآلام. ونحن نجد هذه الشخصية ماثلة فى مقالاته الأولى التى نشرها بعنوان « قبض الريح» وهى قطع من الأدب الرائع، ومن طريف ماجاء فيها هذا النقد الساخر للنساء وقصهن لشعورهن تشبها بالرجال، وتشبه الرجال بهن فى هندمة الملابس وأناقة الأزياء، يقول :

« الناس فى هذه الأيام آنق أزياء وأنظف ثيابا، وأبهج بِزّة منهم

فى أى عهد مضى . ولست أذكر أنى قبل خمسة وعشرين عاما كنت أرى (أفنديا) يلبس طربوشا مبطنا بالخوص والحرير ، أو يرتدى غير السترة الإستامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان طرفى بَنيقتها على الرقبة والتى يبدو فيها المرء كأنه مربوط من عنقه ، ولم يكن الشيوخ يعنون على الأعم بإحكام التفصيل ودقة انسجام القفطان أو الجبة على أبدانهم ، أو يتحرون أن يكون لون الحزام مجاوبا لصبغة القفطان أو بأن تكون لفة (الشال) على طربوش العمامة بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدى منه بقدر . أما النساء فكان زيهن إذا برزن إلى الشوارع يصدّ العين عن النظر ولم يكن الواحد يدرى أهى آدمية تلك الملفوفة فى ملاءتها أم حشوها امرأة تبعثرها الريح . فالآن صارت العين تتعب من النظر إلى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ودع عنك المجتمعات والسهرات . وصحيح أن الرجال والنساء تقاربوا . حسن ليس فى الإمكان أبدع مما كان . لا أدرى ممن سمعت أو أين قرأت أن الله سبحانه وتعالى وكَل إلى ملك معين من ملائكته أن يسبح بحمده - جل وعلا - على أن أنعم على الرجال باللحى وعلى النساء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك . ولكنى أحسب الملك الموكول إليه هذا الواجب - إن صح الخبر - قد جدَّت على صوته نبرة تهكم لاذع علينا نحن بنى آدم الفانين . ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهم وأن الرجال يحلقن - معذرة

فسيختلط الأمر بكرهى وكرهكم - يحلقون شواربهم ولحاهم ، ويتخذون من الثياب ما لا يخلص الهواء بينه وبين الجسم ، أمن أجل ذلك يكون الأمر مدعاة لنبرة سخر ترتفع مع تسبيحة الشكر . نسيت الحرب العظمى وما أفقدت الرجال من خسارة فادحة فى مادة الرجولة لا تعوض فى الأجيال ، وكيف احتاج الأمر أن يحل النساء محل الرجال وأن يملأن فراغهم فى شتى الأعمال ، وكيف أنمى ذلك صفات الذكورة فيهن . ثم انتقلت عدوى ذلك من الغرب إلى الشرق كالعادة.

وينشر المازنى بعد ذلك مجموعة من مقالاته الأدبية البديعة باسم « صندوق الدنيا » وهى مقالات ساخرة فى أكثرها . تنتشر فيها فكاهته أو دعابته المستملحة ، وقد جاء فى تقديمها :

« كنت أجلس إلى الصندوق فى أيام طفولتى وأنظر إلى ما فيه ، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها ، عسى أن يستوقفنى نفر من أطفال الدنيا الكبار فأحطّ (الدكّة) وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملاليم قليلة ، يجودون بها على هذا الأشعث الأغبر». ونكتفى من هذا الصندوق الفكه بحلاق القرية، يقول: « وقعت لى هذه الحادثة فى الريف منذ سنوات عديدة قبل أن تتغلغل المدنية إلى قراه ، وكنت أنا الجانى على نفسى فيها ، فقد عرض علىّ مضيفى أن أستعمل موساه ، فأبيت ، وقلت : مادام

للقرية حلاق فعليَّ به. فحذرني مضيفي وأنذرني ووعظني ، ولكني ركبت رأسي وأصررت أن يجيء الحلاق فجاء بعد ساعات يحمل ما ظننته في أول الأمر مخلاة شعير ، وسلم وقعد وشرع يحييني ويحادثني ، حتى شككت في أمره ، واعتقدت أن الحلاق شخص آخر وأن هذا الجالس أمامي ليس سوى طلائعه . ولما عيل صبري سألته عن حلاق القرية ، فابتسم ومشط لحيته بكفه وأنبأني أن الحلاق محسوبك يعني نفسه . فلعنته في سري ، وسألته متى ينوى أن يحلق لي لحيتي أم لابد أن يضرب بالرمل والحصى أولاً ويحسب الطالع قبل أن يباشر العمل ؟ فلم يفهم ، وأولاني صدغا كث الشعر ، وقال : هيا ، فظننته أصم وصحت به : أريد أن أحلق ، فسره صياحي جدا ، فدنوت من أذنه وسألته هل في القرية فيل ؟ فقال : فيل ؟ لماذا . فأشرت إلى المقص فضحك وقال : هذا مقص حمير ولا مؤاخذة ، فقلت : ولماذا تجيئني بمقص الحمير ، أحمارا تراني ؟ . ويظهر أن معاشرة الحمير بلدت إحساسه ، فإنه لم يعتذر لي ولا عبأ بسؤالي شيئا ، ثم أخرج موسى من طراز المقص و « مكنة » من هذا القبيل أيضا . فعجبت له لماذا يجئ إليَّ بكل أدوات الحمير ؟ وسألته عن ذلك فقال : إن الله مع الصابرين . وبعد أن أفرغ مخلاته كلها انتقى أصغر الأدوات ، وأصغرها أكبر ما رأيت في حياتي ، ثم أقبل عليَّ ، وقال : تفضل . قلت : ماذا تعني ؟ قال : اجلس على الأرض ، قلت : ولماذا بالله ؟ قال : ألا تريد أن تحلق ؟

قلت ألايمكن أن أحلق وأنا قاعد على الكرسى ؟ قال : وأنا ؟ قلت فى سرى : وأنت تذهب إلى جهنم ونعم المصير . وهبطت إلى الأرض كما أمر ، ففتح موسى كالمبرد ، فقلت إن وجهى ليس حديدا يا هذا ، قال : لا تخف إن شاء الله . ولكنى خفت بإذن الله ، ولا سيما حين شرع يقول : باسم الله ، الله أكبر ، كأنما كنت خروفا ، ويبصق فى كفه ويشحذ الموسى على بطن راحته . ثم جذب رأسى فذُعرت ونفرت ووليت هاربا إلى أقصى الغرفة . فقال ماذا ؟ قلت أتريد أن تحلق لى بمبرد ومن غير صابون ؟ قال : ماذا يخيفك ؟ قلت يخيفنى؟! لقد دعوتك لتحلق لى لحيتى لا لتبرد شعرها، قال: يا « افندى » لا تخف . وأسلمت أمرى لله وعدت فقعدت أمامه ، فنهض على ركبتيه ، وتناول رأسِي بين كفيه ، وأمال صدغى إليه ، ثم وضع ركبتيه على فخذى ، ولف ذراعه حول عنقى ، فصار فمى مدفونا فى صدره فصحت أو على الأصح جاهدت أريد الصياح لعل أحدا يسمعنى فينجدنى ، غير أن طيات ثوبه كانت فى فمى ، أما رائحة الثوب فبحسب القارئ أن يعلم أنها أفقدتنى الوعى . ولا أطيل على القارئ ، فقد أهوى الرجل بموساه على وجهى ، فسلخ قطعة من جلدى ، فردنى الألم إلى الحياة وآتانى القوة الكافية للصراخ ، على الرغم من الكمامة . ووثبت أريد الباب ، ولكنه كان على كبر سنه أسرع منى ، وما يدرينى لعله كان يتوقع ذلك ، وعسى أن يكون المران قد علمه أن يكون يقظا لأمثال هذه

المحاورات ، فردنى بقوة ساعده ، فتشهدت وتذكرت قول المتنبى :

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

ثم جاء هذا السفاح بطست يغرق فيه كبش ، ووضعه تحت ذقنى ، وصب مادة على وجهى وفى صدرى وعلى ظهرى ، ليغسل الدم الذكى الذى أراقه ، وأخرج من مخلاته منشفة هى بممسحة الأرض أشبه ، فاعتذرت ، وأخرجت منديلى ، وسبقته به إلى وجهى . وهى معركة لا تزال بجلدى منها ندوب وآثار » .

وفى صفحة أخرى من صندوق الدنيا نراه يسير على ظهر حمار فوق قنطرة على ماء ، يقول : « فلما توسطها الجحش بدا له أن يقف وراقه منظر الماء ، فأجال فيه عينيه برهة ، ثم خطا إلى حافة الجسر ، ولم يكن له حاجز ومد عنقه إلى الماء ، فظننت أنه قصير النظر ، وأنه يفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله فى الماء واجتلاء طلعته البهية فى صقاله ، ولكنهم قالوا لى إنه كان يريد أن يشرب ، فنزلت عنه ، وقلت له يا عزيزى إن من دواعى أسفى أنى مضطر أن أتركك إلى الماء وحدك فإن ثيابى يفسدها الماء ، وهى غالية إذا كانت حياتى رخيصة . ولكن بعد أن فكر قليلا غيرَّ رأيه ، إما لأن الصورة التى طالعته فى صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة وعجز الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة ، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكاشفنى بها » .

وتسرى هذه الروح الفكهة فى قصص المازنى على نحو ما تسرى فى مقالاته ، فمن ذلك وصفه لخادمته فى كتابه أو مجموعته القصصية « عود على بدء » وهى تجرى على هذه الشاكلة :

« لا أطلب منها شيئا إلا وتجيئنى بخلافه ، أقول هاتى الكبريت ، وليس فى لفظ الكبريت ولا فى حروفه ما يمكن أن يلتبس بالجبن الرومى ، وهى ليست بالصماء ، فإن سمعها كسمع القطة ، وأنا خفيض الصوت ، ولكنى أتوخى معها أن أزعق وأصيح حتى يبحّ صوتى ويوجعنى حلقى ، وأمرض يوما أو يومين . ومع ذلك لا تكاد تسمعني أطلب الكبريت حتى تقول حاضر ، وتعمد إلى ملاءة سوداء تلفها على نفسها - فانها حَيِيَّة - وتخرج ، فتشترى لى جبنا ، قد يكون روميا غير مزيف أو مقلدا ، ولكنه لم يخطر لى على بال ولا كانت لى رغبة فيه . وأراها مقبلة علىَّ ، تحمل على كفيها صينية عليها طبق فيه الجبن الرومى وشوكة وسكينة وفوطة ولقمة ، فإنها تدرك من تلقاء نفسها وبغير حاجة إلى تلقين أن الجبن الرومى لايؤكل وحده فلابد من خبز معه ، ومادام سيدها يأكل وقد اشتهت نفسه الجبن الرومى فهل تتركه يوسخ يده ؟ معاذ الله ، وهذا هو تفسير الشوكة والسكين . وأنظر إلى هذا الذى على يديها فأتميز من الغيظ ، وأكاد أطق وأنفلق ، ولكنى ألمُّ نفسى بجهد ، وأهز رأسى وأروح أتعجب لقدرة ربى على خلق كل هذه الأصناف من الناس . هذه امرأة لها كل مالى تقريبا من الأعضاء ، وليس ينقصها

شىء ، وهى تتكلم العامية التى نتكلمها ولا أعرف لها لغة غيرها ، ومع ذلك لكل لفظ فى هذه اللغة معنى عندها غير معناه عندنا فالكبريت معناه الجبن الرومى ، والكتاب معناه طاحونة البن ، والكلب معناه الخيط والإبرة ، والكمّون معناه السجاير . حتى لقد خطر لى أن الألفاظ التى تبدأ بالكاف هى التى انفردت عندها بهذا الحال المقلوب .

وأنا أحصى هذه الألفاظ إيثارا للراحة وأثبت معانيها إلى جانبى ، ليتسنى لى أن أخاطبها بلغتها ، فأقول لها مثلا : خذى اشترى لى كمونا ويكون مرادى السجاير أو هاتى كلبا وخيَطى هذا الزرار . وإذا مررت بالصانع الذى يصلح طواحين البن قلت : « خذى الكتاب فأصلحيه عنده او اشترى لنا كرنبا أى بترولا » .

وبهذه الفكاهة وما تحمل أحيانا من تهكم وسخرية كان يكتب حتى عن نفسه وزوجه وأهله ، ومن حديثه الفكه عن نفسه فى مجموعته القصصية «فى الطريق » قوله :

«لست أخشى اللصوص، فيا معى ولا فى بيتى ماأخشى عليه الضياع، وأتقي أن أُمْنىَ فيه بالخسارة، ولو أن لصا كريما فيه مروءة دخل بيتى - أو حيث أقيم فما هو بيتى - وحمل ما فيه من متاع لحمّلته شكرى ولبعثت بنسخة منه إلى الصحف فإن من اللؤم أن يقابل الأحسان بأقل من الشكر . وإن فى قولى متاعا لتجوُّزا فى التعبير وإغراقا فى حسن الظن بالقراء ، فما أرى لى متاعا فى شىء

مما حولى . وسبب آخر يجرّئنى على لقاء اللصوص ويجعلنى لا أتهيبهم ، وذلك أنى كما تعلم - أو كما لا تعلم - ضامر ضاو ظاهر الضآلة بادى الضعف . وأوجزُ تعريفٍ بنفسى يحضرنى الآن هو إنى امرؤ فارغ الثياب ». وفى موضع آخر يتحدث إلى زوجته على هذا النحو :

« إن من الواضح أن تربيتك ناقصة جدا! هذا أنا بجلال قدرى أكلمك منذ عشر ساعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية وأنت لا تجيبين » فقالت زوجتى أخيرا وألقت مابيدها ، وكان شيئا تطرزه أو لا أدرى ماذا تعنى به : « إنى لست اليوم كفؤا لك ولهزلك فاسكت من فضلك » . قلت : « هذا بديل جميل من الاعتذار ، ألا تستحين يا امرأة ؟ ثم ما هذا الذى تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج رأسك وبعلك ؟ » قالت : « أرجوك ، أرجوك يا مسلم ، ثم إن الطباخة خرجت . » فانتفضت واقفا ، وصحت : «نهارك أسود » .

وبهذا الأسلوب الفكه الساخر كان المازنى يكتب بعض مقالاته وقصصه مستغلا للطبائع ومصورا للمآزق والمواقف ومتخذا من افتراق العقليات والأمزجة مادة خصبة لما يريد من ألوان الفكاهة وصورها التى تعبر تعبيرا دقيقا عن ظرفه وخفة روحه مستخدما لذلك أقرب لفظ وأسهل أسلوب .

* * *

ولعل فى كل ما سبق ما يدل دلالة واضحة على أن الفكاهة تتعمق روح المصريين من أعمق عصورهم إلى عصرنا الحديث ، فهى الزبد يعلو دائما على سطح حياتنا ، بل لكأنها الجوهر النفيس فى مزاجنا وطباعنا ، وهى لذلك دائمة البريق واللمعان فى مجالسنا ومحافلنا وعلى شفاهنا وأفواهنا .

فهـرس

صفحة

رقم الإيداع	٢٠٠٤/١١٠١٧	
الترقيم الدولى	977-02-6667-1	ISBN

١/٢٠٠٤/٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)